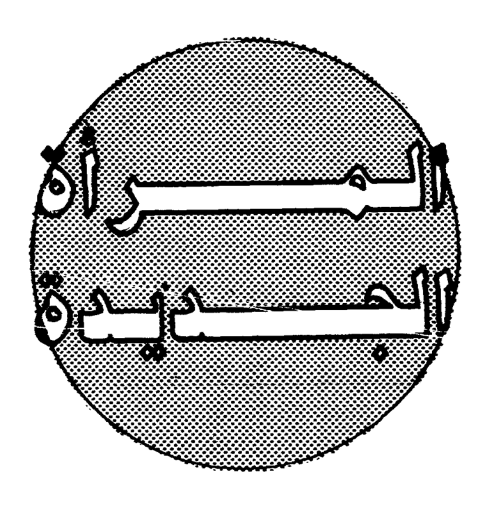
كتاب اليوم
يصدر عن مؤسسة أخبار اليوم

قاسم أمين

• العدد ٣٠٢ • ديسمبر ١٩٨٩ •

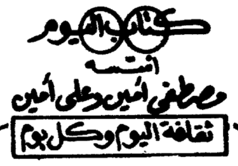


قاسم أمين



● العدد ٣٠٢ ● ديسمبر [illegible] ●





رئيس مجلس الإدارة

سعيد سنبل

العدد ٣٠٢ جمادى أول ١٤١٠ هـ
ديسمبر ١٩٨٩ م
كانون

الصحافة ت ٧٥٨٨٨٨ عشرة خطوط
تلكس دولى ٩٢٢١٥ - محلى ٩٢٢٨٢

الاشتراكات

جمهورية مصر العربية
قيمة الاشتراك السنوى ١٢ جنيه مصرى

البريد الجوى

دول اتحاد البريد العربى والافريقى ١٥ دولار امريكى اوما يعادله
باقى دول العالم واوربا والامريكتين واسيا واستراليا ٢٠ دولار امريكى اوما يعادله

- ويمكن قبول نصف القيمة عن ستة شهور
- ترسل القيمة إلى الاشتراكات ٣ ا ش الصحافة القاهرة ت ٧٤٨٨٤٤ (٥ خطوط)

أسعار كتاب اليوم

البلد	السعر	العملة
المغرب	١٥	درهم
لبنان	٥٠٠	ليرة
الاردن	٧٥٠	فلس
العراق	٣٠٠٠	فلس
الكويت	٧٠٠	فلس
السعودية	٧	ريالات
السودان	٤٠٠	قرش
تونس	١٤٠٠	مليما
الجزائر	١٧٥٠	سنتيما
سوريا	١٤٠٠	ق.س
الحبشة	٦٠٠	سنت
البحرين	٨٥٠	فلس
سلطنة عمان	٧٠٠	بيسة
غزة	١٠٠	سنت
اليمن	٨	ريالات
الصومال بحيريا	٨٠	بنى
السنغال	٦٠	فرنك
الامارات	٨	درهم
قطر	٨	ريالات
انجلترا	١٢٥	بنى
فرنسا	١٠	فرن
المانيا	٥	مارك

فى الخارج

البلد	السعر	العملة
ايطاليا	٦٠٠٠	ليرة
هولندا	٥	فلورين
باكستان	٣٥	روبية
سويسرا	٤	فرنك
اليونان	١٠٠	دراخمة
النمسا	٤٠	شلن
الدنمارك	١٥	كرونات
السويد	١٥	كرون
الهند	٣٥٠	سنتا
كندا امريكا	٣٠٠	سنت
البرازيل	٤٠٠	كروزيرو
نيويورك وواشنطن	٣٥٠	سنتا
لوس انجلوس	٤٠٠	سنت
استراليا	٤٠٠	سنت

- الغلاف : حسين بيكار
- الرسوم والماكيت : محمد عفت

الإهــــــداء

إلى صـديقى سعد زغلول :

فيك وجدت قلبا يحب ، وعقلا يفتكر ، وإرادة تعمل .

أنت مثلت إلىّ المودة فى أكمل أشكالها ، فأدركت أن الحياة ليست كلها شقاء ، وأن فيها ساعات حلوة لمن يعرف قيمتها .

من هذا أمكننى أن أحكم أن هذه المودة تمنح ساعات أحلى إذا كانت بين رجل وزوجته .

ذلك هو سر السعادة الذى رفعت صوتى لأعلنه لأبناء وطنى رجالا ونساء .

١٥ أغسطس سنة ١٩٠٠

قاسم أمين



قاسم أمين

مقدمة

المرأة الجديدة : هى ثمرة من ثمرات التمدن الحديث ، بدأ ظهورها فى الغرب على أثر الاكتشافات العلمية التى خلصت العقل الإنسانى من سلطة الأوهام والظنون والخرافات وسلمته قيادة نفسه ، ورسمت له الطريق التى يجب أن يسلكها . ذلك حيث أخذ العلم يبحث فى كل شىء ، وينتقد كل رأى ، ولا يسلم إلا إذا قام الدليل على ما فيه من المنفعة للعامة وانتهى به السعى إلى أن أبطل سلطة رجال الكنيسة . والغى امتيازات الأشراف ووضع دستورا للملوك والحكام ، وأعتق الجنس الأسود من الرق ، ثم أكمل عمله بأن نسخ معظم ما كان الرجال يرونه من مزاياهم التى يفضلون بها النساء ولا يسمحون لهن بأن يساوينهم فى كل شىء .

ـ كان الأوروبيون يرون رأينا اليوم فى النساء ، وأن أمرهم مقصور على النقص فى الدين والعقل وانهن لسن إلا عوامل الفتنة وحبائل الشيطان ، وكانوا يقولون : ان (ذات الشعر الطويل والفكر القصير) لم تخلق إلا لخدمة الرجل ، وكان علماؤهم وفلاسفتهم وشعراؤهم وقسسهم يرون من العبث تعليمها وتربيتها ويسخرون بالمرأة التى تترك صناعة الطعام وتشتغل بمطالعة كتب العلم ويرمونها بالتطفل على ما كانوا [illegible] خصائص الرجال .

فلما انكشف عنهم غشاوة الجهل ، ودخل حال المرأة تحت انتقاد الباحثين اكتشفوا أنهم هم أنفسهم منشأ انحطاطها وسبب فسادها ، وعرفوا أن طبيعتها العقلية والأدبية قابلة للترقى كطبيعة الرجل ، وشعروا أنها إنسان مثلهم ، لها الحق فى أن تتمتع بحريتها ، وتستخدم قواها وملكاتها ، وأن من الخطأ حرمانها من الوسائل التى تمكنها من الانتفاع منها .

ومن ذلك الحين دخلت المرأة الغربية فى طور جديد ، وأخذت فى تثقيف عقلها وتهذيب أخلاقها شيئا فشيئا ، ونالت حقوقها واحدا بعد الآخر . واشتركت مع الرجال فى شئون الحياة البشرية ، وشاركتهم فى طلب العلم فى المدرسة ، وسماع الوعظ فى الكنيسة . وجالستهم فى منتديات الأدب ، وحضرت فى الجمعيات العلمية ، وساحت فى البلاد . ولم يمض على ذلك زمن طويل حتى اختفت من عالم الوجود تلك ـ الأنثى ـ تلك الذات البهيمية التى كانت مغمورة بالزينة ، متسربلة بالأزياء ، منغمسة فى اللهو ، وظهر مكانها امرأة جديدة ، هى المرأة شقيقة الرجل ، وشريكة الزوج ، ومربية الأولاد ، ومهذبة النوع ! .

هذا التحويل هو كل ما نقصد .

غاية ما نسعى إليه هو أن تصل المرأة المصرية إلى هذا المقام الرفيع ، وأن تخطو هذه الخطوة على سلم الكمال اللائق بصفتها ، فتمنح نصيبها من الرقى فى العقل والأدب ، ومن سعادة الحال فى المعيشة ، وتحسن استعمال مالها من النفوذ فى البيت .

إذا تم ذلك فنحن على يقين لا يزعزعه أدنى شك من أن هذه الحركة الصغيرة تكون أكبر حادثة فى تاريخ مصر .

إذا كان هذا هو اعتقادنا فهل يصح أن يصدنا عن المثابرة فى السعى إلى تحقيق آمالنا أن الجمهور من العامة لم يلتفت إليه ، او أن بعض الكتاب أظهروا السخط عليه ، ما بين منتقد لم يتفق

رأيه مع رأينا ، وساخر يقضي عمره في السفاسف ، ومغتر ينكر علينا حسن نيتنا ؟؟ .

نحن لا نكتب طمعا في أن ننال تصفيق الجهال وعامة الناس الذين إذا سمعوا كلام الله وهو الفصيح لفظه الجلي معناه ، لا يفهمه إلا إذا جاء محرفا عن وضعه منصرفا عن قصده برأى شيخ هو أجهل الناس بدينه ! ولا يحبون الوطن إلا إذا تمثل لأعينهم في صورة قبيحة وأخلاق رثة وعادات سخيفة ! وإنما نكتب لأهل العلم ، وعلى الخصوص للناشئة الحديثة التي هي مستودع أمانينا في المستقبل ، فهي التي بما اكتسبته من التربية العلمية الصحيحة يمكنها أن تحل مسألة المرأة المكان الذى تستحقه من العناية والبحث .

لم نر هذه الدفعة حاجة إلى التكلم على الحجاب من الجهة الدينية فإن ما أوردناه في كتاب [تحرير المرأة] من النصوص القرآنية صريح في إباحة كشف الوجه واليدين ، ومعاملة النساء للرجال ، وقد وافقنا على ذلك كثير من علماء المسلمين الذين نقلنا آراءهم . أما أن فريقا آخر من الفقهاء استحسن التشديد في الحجاب فهذا رأى لا يلزمنا الدين باتباعه .

وإذا كان في هذه المسألة قولان فمن الصواب أن يرجح القول الموافق للحرية الإنسانية وللمصلحة العامة .

وقد كتب صاحب مجلة [المنار][1] كلمة في الحجاب نوردها هنا تأييدا لرأينا . قال :

---

(١) هو الشيخ محمد رشيد رضا (١٨٦٥ ـ ١٩٣٥ م) كاتب إسلامي سلفي ، جعل من مجلته وقلمه وسائط بين فكر الإمام محمد عبده وبين جمهور القراء ولذلك كانت أهم إنجازاته هي الحفاظ على آثار الأستاذ الإمام وكتابة تاريخه ولقد تميز منهجه السلفي المحافظ عن منهج محمد عبده العقلاني ، خاصة بعد وفاة الأخير سنة ١٩٠٥ م .

« وأما الأمر الثالث ، وهو حكم الشرع فى هذه المكالمة ، فالمعروف أن الشرع إنما حرم الخلوة بالمرأة الأجنبية . وأخبار الصدر الأول مستفيضة بمكالمة النساء للرجال وحديثهن معهم فى الملأ دون الخلوة ، وكفاك أن نساء النبى صلى الله عليه وسلم ـ وهن اللاتى أمرن بالمبالغة فى الحجاب ـ كن يحدثن الرجال ، حتى أن السيدة عائشة كانت قائدة عسكر ومدبرة له فى وقعة الجمل المعروفة ، وما أخال أن مكابرا يقول إنها لم تكن تكلم أحدا منهم إلا ذا محرم » .

هذا هو رأى رجل عرف الناس جميعهم مكانه من الدين . ولو كان اهل الأزهر يشتغلون بفهم مقاصد دينهم بدلا من اشتغالهم بالألفاظ والتراكيب النحوية واللغوية لما اختلفوا معنا فى شىء مما قلناه .

ومن العيب أن الجرائد وأصحاب الأفكار يرمون كل يوم علماء الدين الإسلامى بأنهم السبب فى انحطاط وتأخر الأمم الإسلامية عن سواها فى المدنية ، ويصفونهم بالتساهل فى فهم الدين وعدم مراعاة أحكامه ، ثم إذا تحركت غيرة لعرض راى يظن أن فيه خيرا للأمة تحولت انظارهم إلى هؤلاء العلماء واستفتوهم عن رأيهم فيه ، وغاب عنهم أن الذين يحاربون الإصلاح ولا يفرضون لتعلمهم العلوم العصرية فائدة تعود عليهم فى تهذيب عقل أو استكمال أدب أو تقويم عمل ، ولم يقبلوا تدريس علم الجغرافيا والتاريخ إلا رغم أنفهم ليس لهم مقام لا من العلم ولا من الدين يسمح لهم بإبداء رأى فى شأن من شئون الأمة فضلا عن مسألة من أهم مسائل الاجتماع البشرى .

والمطلع على الشريعة الإسلامية يعلم أن تحرير المرأة هو من انفس الأصول التى يحق لها أن تفخر به على سواها ، لأنها منحت المرأة من اثنى عشر قرنا مضت الحقوق التى لم تنلها المرأة الغربية إلا فى هذا القرن وبعض القرن الذى سبق ، حتى إنها لا تزال محرومة من بعض الحقوق وهى الآن مشتغلة بالمطالبة بها .

فإذا كانت شريعتنا قررت للمرأة كفاءة ذاتية فى تدبير ثروتها والتصرف فيها ، وحثت على تعليمها وتهذيبها ، ولم تحجر عليها الاحتراف بأى صنعة والاشتغال بأى عمل ، وبالغت فى المساواة بينها وبين الرجل إلى حد أن اباحت لها أن تكون وصية على الرجل وأن تتولى وظيفة الإفتاء والقضاء أى وظيفة الحكم بين الناس بالعدل ، وقد ولى عمر رضى الله عنه على أسواق المدينة نساء ، مع وجود الرجال من الصحابة وغيرهم ، مع أن القوانين الفرنساوية لم تمنح النساء حق الاحتراف بصنعة المحاماة إلا فى العام الماضى ، إذا كانت شريعتنا تحامى عن المرأة إلى هذا الحد ، وتمنحها هذه الدرجة من الحرية ، فهل يجدر بنا فى هذا العصر أن نغفل مقاصد شرعنا ونهمل الوسائل التى تؤهل المرأة إلى استعمال هذه الحقوق النفسية ، ونضيع وقتنا فى مناقشات نظرية لا تنتج إلا تعويقنا عن التقدم فى طريق إصلاح أحوالنا ؟ .

لا اظن أن ذلك يليق بنا وأرجو أن كثيرا من القراء يرون مثل رأينا .

● ● ●



المرأة فى حكم التاريخ

لا يمكن معرفة حال المرأة اليوم إلا بعد معرفة حالها فى الماضى . تلك هى قاعدة البحث فى المسائل الاجتماعية ، فإننا لا يمكننا أن نقف على حقيقة حالنا فى أى شأن من شئوننا إلا بعد استقراء الحوادث الماضية والإلمام بالأدوار التى تقلبت فيها ، وبعبارة أخرى يلزم أن نعرف من أى نقطة ابتدأنا حتى نعلم إلى أى نقطة نصل .

ذكر شيخ المؤرخين « هيروديت »[1] أن علاقات الرجل بالمرأة كانت متروكة إلى الصدفة . ولا تفترق عما يشاهد بين الأنعام . وكان الشأن إذا ولدت المرأة ولدا أن يجتمع القوم متى وصل الولد إلى سن البلوغ وينسبوه إلى أشبه الناس به . وهذه العادة كانت معروفة أيضا عند القبائل الجرمانية وعند العرب فى الجاهلية . وقد جاءت روايات السياح المعاصرين لنا مؤيدة لما جاء به التاريخ ، فإن جميع السياح الذين طافوا بلاد « تايتى » وجزائر « مركيز » وغيرهما من أقاليم أستراليا وزيلنده الجديدة وبعض بلاد الهند وأفريقيا ذكروا أن الزواج غير معروف فى تلك البلاد .

ولا خلاف فى أن المرأة التى هذه حالها تعيش مستقلة ، تعول نفسها بنفسها ، مساوية للرجل فى جميع الأعمال ، بل لها من المزية عليه أن نسب الأولاد يتعلق فى الغالب بها وحدها ، فالمرأة فى هذا الدور الأول هى ذات الشأن فى الهيئة الاجتماعية ، وربما كانت تشترك فى الدفاع عن قبيلتها مع الرجال ، ويدل على ذلك ذكر وقائع الفارسات فى التواريخ القديمة ووجود عادة منتشرة إلى الآن فى بعض البلاد تقضى بتجنيد النساء كما تجند الرجال ومن هذا القبيل

---

(١) هو الملقب بأبى التاريخ ، عاش ما بين سنتى ٤٨٤ و ٤٢٥ ق م وسجل تاريخ الصراع بين الفرس والاغريق وزار عددا من البلاد . من بينها مصر . وكتب عن مشاهداته وما سمعه من طرائف وأساطير .

أن ملك « سيام » له عدد من النساء عهد إليهن حراسته . وكان لملك « الداهومية بها نزن » الذى استولى الفرنساويون على بلاده من بضع سنين خمسمائة جندى من الرجال وخمسمائة من النساء .

ولما ودع الإنسان بداوته . واتخذ وطنا قارا ، واشتغل بالزراعة وجد نظام البيت ، ومن أهم ما ساعد على تشكيل العائلة أنه كان لكل عائلة معبود خاص بها تختاره من بين أسلافها كما كان جاريا عند اليونان والرومان والهنود والجرمانيين ، وكما هو جار إلى الآن عند الأمم المتوحشة ، وله بقية فى بلاد الصين ، وكانت العائلة تقدم القربان إلى آلهتها ، فكان هذا باعثا للرجل على استبقاء ذرية تقوم بتأدية الخدمات الدينية .

وترتب على دخول المرأة فى العائلة حرمانها من استقلالها ، لذلك نرى رئيس العائلة عند اليونان والرومان والجرمانيين والهنود والصينيين والعرب مالكا لزوجته ، وكان يملكها كما يملك الرقيق بطريق الشراء ، بمعنى أن عقد الزواج كان يحصل على صورة بيع وشراء ، وهذا أمر يعلمه كل مطلع على القانون الرومانى ، وذكره المؤرخون ورواه السياح المعاصرون لنا . يشترى الرجل زوجته من أبيها فتنتقل إليه جميع حقوق الأب عليها . ويجوز له أن يتصرف فيها بالبيع لشخص آخر ، فإذا ماتت انتقلت مع تركته إلى ورثته من أولادها الذكور أو غيرهم .

ومما يتبع هذه الحال أن المرأة لا تملك شيئا لنفسها ولا ترث ، وان يتزوج الرجل بعدة نساء لأن الوحدة فى الزواج تفرض المساواة بين الزوجين فى الحقوق والواجبات .

ثم خفت صولة الرجل على المرأة نوعا بتأثير الحكومة ، فردت إليها حق الملك كله أو بعضه ، وحق الإرث تاما أو ناقصا ، على حسب الشرائع ، ولكن حماية الحكومة للمرأة لم تبلغ فى أى بلد من البلاد إلى حد أنها سوت بين الرجل والمرأة فى الحقوق ، فالمرأة فى

الهند كانت مجردة عن شخصيتها الشرعية ، وعند اليونان كانت النساء مكلفات بأن يعشن فى الحجاب التام . ولا يخرجن من بيوتهن إلا عند الضرورة ، وعند الرومان كانت المرأة فى حكم القاصر ، وفى مبدأ تاريخ أوروبا عندما كانت خاضعة إلى سلطة الكنيسة والقانون الرومانى ، كانت فى أسوأ حال ، حتى أن بعض رجال الدين أنكروا أن لها روحا خالدة وعرضت هذه المسألة على المجمع الذى انعقد فى ماون فى سنة ٥٨٦ فقرر بعد بحث طويل ومناقشة حادة أن المرأة إنسان ولكنها خلقت لخدمة الرجل ، وكان من الضرورى أن تعيش تحت قوامة رجل وهو أبوها قبل زوجها ، ثم زوجها بعد الزواج ، وأحد أبنائها إذا مات الزوج ، أو أحد أقاربها من الذكور أو أقارب زوجها إن لم يكن لها أولاد ، ولا يجوز لها فى أى حال أن تتصرف بنفسها ، وكانت غير أهل للشهادة فى العقود ولا للوصاية على أولادها القصر ولا لأن تكون حكما أو أهل خبرة ، وشوهد فى بعض ولايات سويسرة أن شهادة امرأتين تساوى شهادة رجل واحد ، ولا تزال آثار هذه الأحكام باقية إلى الآن فى كثير من مماليك أوروبا . ذلك لأن مبدأ تشكيل الحكومة كان على صورة العائلة . والحكومة التى تؤسس على السلطة الاستبدادية لا ينتظر منها أن تعمل على اكتساب المرأة حقوقها وحريتها .

هذا الضرب من الحكومة الاستبدادية هو أول حكومة سياسية ظهرت فى العالم ، وقد اضمحل ثم زال بعد أن أقام أجيالا فى البلاد الغربية ، وحل محله النظام الدستورى المؤسس على أن الحاكم ليس له حق على الأشخاص ولا على الأموال إلا ما تفرضه القوانين .

ولكنه لا يزال سائدا فى الشرق بعامة حيث نرى سكان الصين والهند وبلاد العرب والترك والعجم خاضعين إلى سلطة حكومة لم تتغير عما كانت عليه من آلاف من السنين .

وليس هنا محل البحث عن الأسباب التى وقفت بهذه الجمعيات الشرقية عند حد العجز عن التخلص من الاستبداد المزمن الذى حرمها الترقى فى المدنية وحصر حركاتها فى مدار واحد بدون أن تنتقل من مكانها . وإنما يهمنا هنا أن نثبت أمرا يتعلق بموضوعنا وهو :

وجود التلازم بين الحالة السياسية والحالة العائلية فى كل بلد . ففى كل مكان حط الرجل من منزلة المرأة وعاملها معاملة الرقيق حط نفسه وأفقدها وجدان الحرية . وبالعكس فى البلاد التى تتمتع فيها النساء بحريتهن الشخصية يتمتع الرجال بحريتهم السياسية فالحالتان مرتبطتان ارتباطا كليا .

وأن لسائل أن يسأل : أى الحالتين أثرت فى الأخرى ؟ نقول : إنهما متفاعلتان ، وأن لكل منهما تأثيرا فى مقابلتها . وبعبارة أخرى : إن شكل الحكومة يؤثر فى الآداب المنزلية والآداب المنزلية تؤثر فى الهيئة الاجتماعية .

انظر إلى البلاد الشرقية ، تجد أن المرأة فى رق الرجل ، والرجل فى رق الحاكم ، فهو ظالم فى بيته مظلوم إذا خرج منه .

ثم انظر إلى البلاد الأوروباوية تجد ان حكوماتها مؤسسة على الحرية واحترام الحقوق الشخصية فارتفع شأن النساء فيها إلى درجة عالية من الاعتبار وحرية الفكر والعمل . وان كن لم يصلن إلى الآن إلى مستوى ما أعدلهن ، ثم انتقل إلى بلاد أمريكا تجد الرجال مستقلين فى معيشتهم الخاصة استقلالا تاما وان سلطة الحكومة

وتداخلها فى شئون الأفراد يكادان أن يكونا معدومين ، ولهذا زادت حرية النساء فيها عما هى فى أوروبا بكثير ، حيث تساوى المرأة والرجل من البلاد الأميريكية فى جميع الحقوق الشخصية . وفى بعض تلك الولايات تمت المساواة بينهما أيضا فى الحقوق السياسية .

ففى ولاية « بومنج » نالت النساء حق الانتخابات السياسية من سنة ١٨٦٩ .. وإنى أنقل هنا رأى رئيس حكومتها « المسيو شامبل » ، الذى جاهر به فى خطبة ألقاها بعد سنتين من العمل بهذا القانون قال :

« مضت سنتان والنساء بحكم القانون يستعملن حقوقهن السياسية ، فينتخبن نواب الأمة وينبن بأنفسهن عنها ، ويجلسن فى مراكز القضاء . ويؤدين ما دون ذلك من الوظائف العمومية ، ومن العدل أن النساء قد قمن بهذه الواجبات الجديدة على وجه من الرزانة وحصافة الرأى وسلامة الذوق لا ينقص عما يقوم به الرجال . وهذه التجربة بالنسبة لقصر مدتها لا تصلح أن تكون دليلا مقنعا لإثبات استعداد المرأة فى القيام بمهام الحكومة لكنها تحمل على حسن الظن بفطرة المرأة . ومادام الحال على هذا المنوال فلهن الحق فى الاستمرار » .

وبعد تجربة أخرى مدة أربع سنين قال الرئيس المذكور :

« مضى اليوم ست سنين ونحن نجرب النساء فى استعمال حقوقهن السياسية ، وقد أعلنت رأيى فى جلسة سابقة . وصرحت بالفوائد التى أظهرتها التجربة ، والآن أقول : إن ما شاهدته فى مدة هذه الست سنين أقنعنى إقناعا تاما بأننا أصبنا فى تخويل النساء حق الانتخاب . وأن مساواة المرأة للرجل فى الحقوق السياسية قد نجحت بالتجربة نجاحا لا يمارى فيه أحد » .

....

وبعد ذلك بسنتين تعيّن رئيس آخر للحكومة وهو الجنرال « طاير » . وقد انتخب من بين أعضاء مجلس شيوخ الولايات المتحدة . فخطب قائلا :

« لقد مضى ثماني سنين والنساء يتمتعن في أرضنا بالحقوق السياسية ، وكل يوم يمر يزيد الأهالي ثقة بالنساء . وفي رأيي ان هذا نتيجة حسنة لأنها موافقة لمصالح أمتنا » .

ثم بعد ذلك بخمس سنين في ١٢ يناير سنة ٨٢ خطب رئيس آخر يدعي جون هويت بما هو آت :

إن ولاية « بومنج » هي المكان الوحيد الذي تتمتع فيه النساء بجميع الحقوق السياسية الممنوحة للرجال بلا فرق بين الصنفين ، وهذا الاقدام من أمتنا ، التي أرشدها حب الحق والعدل إلى إصلاح خطأ طال عليه الزمن . قد وجه أنظار العالم إلينا . ولئن زعم اخصامنا أننا لا نزال في دور التجربة فكلنا نعلم أن هذا الدور قد انقضى بالنسبة إلينا . وإني أصرح هنا بأن اشتراك النساء في أعمال الحكومة مع الرجال ترتب عليه أن القوانين عندنا أصبحت أحسن مما كانت عليه . وان عدد الموظفين الأكفاء وصل إلى درجة لم نعهدها من قبل وأن حالتنا الاجتماعية ارتقت كثيرا ، وهي الآن تفوق ما عليه سائر البلاد الأخرى . وان جميع المصائب التي كنا نهدد بحلوها ، مثل فقد النساء رقة الطبع . واضطراب النظام في معيشتنا المنزلية . لم نر لها أثرا إلا في مخيلات خصومنا .

إن السواد الأعظم من نسائنا قدرن حقوقهن الجديدة حق قدرها . واعتبرن القيام بها واجبا وطنيا . وبالجملة فإني أقول : ان تجربة اثنتي عشرة سنة مع النجاح الباهر قد مكنت في عقولنا ونفوسنا ان مساواة المرأة للرجل مما لا يرتاب فيه .

وكل هذه المقدمات تنساق إلى طلب الكمال في حالتنا الاجتماعية حتى نجعل ولاية « بومنج »نجما يهتدي به العالم في الحركة العظيمة التي تصعد بالإنسان ذروة الحرية » .

وليس على أن أضيف على آراء هؤلاء الرجال العظام إلا أن قانون سنة ٦٩ لا يزال معمولا به إلى الآن فى « بومنج » . وأن ثلاث ولايات أميريكانية قد حذت حذو تلك الولاية وخولت النساء الحقوق السياسية ، وهى ولاية « أوته » و « كولورادو » و «إيداهو » .

أما فى باقى ولايات أمريكا فالمرأة لم تنل إلى الآن حقوقها السياسية . ولكن كل مطلع على حركة الرأى العام فيها لا يشك أنها ستنال هذه الحقوق فى زمن قريب جدا . وإليك رأى رجلين من أكبر رجالها السياسيين .

قال « سميلون » العضو فى مجلس شيوخ الولايات المتحدة : « انى أعتقد أن انتشار الفسق فى مدننا الكبيرة لا يمكن أن يضيق نطاقه إلا إذا منحت النساء حق الانتخاب » .

ومن رأى « جيلبير هافيه » . وهو أيضا من أعضاء مجلس الشيوخ : « ان فساد الأخلاق السياسية لا يصلحه إلا اشتراك النساء فى الانتخابات . لأننا نعلم أن الخمارة هى مجلس البلدية ومركز الانتخابات وما ذلك إلا لأن الخمارة هى المحل الوحيد الذى لا تدخل فيه المرأة » .

لعل القارىء يستغرب كيف أن الرجال فى أمريكا يرون أن لا سبيل إلى محاربة الفسق وفساد الأخلاق إلا بمعرفة النساء . هذا أمر يحتاج إلى البيان ، ولذلك أنقل هنا رأى القاضى الأمريكانى « جون لينجمان » . وقد نشر فى سنة ١٨٨٢ فى أهم جرائد أوروبا قال :

« كان الرجال قبل اشتراك النساء فى الوظائف العمومية إذا اجتمعوا فى مكان واحد لا يخلو جيب واحد منهم من مسدس ، فإذا قام نزاع خفيف بين بعض الحاضرين لم يكن ينتهى عادة إلا بقتل أو جرح ، وكان المحلفون يحكمون فى الغالب ببراءة الجانين ، فلما اشتركت النساء فى الوظائف القضائية مع الرجال نتج عن ذلك

معاقبة المذنبين ، وكذلك كان المحلفون لا يهتمون بالعقوبة على السكر والقمار فتغير الحال الآن وقد ترتب على حضور النساء فى الجلسات اننا نرى الآن قاعدتها متحلية من النظام والأدب والوقار بأكثر مما كان يعرف فيها من قبل .

ولم يترتب على اشتغال النساء بالوظائف العمومية انهن أهملن ما يجب عليهن فى منازلهن ولم يصل إلى علمى أن زوجا اشتكى زوجته بسبب اشتغالها عن مصالح منزلها بالمصالح العامة ولم أر شقاقا بين زوجين بسبب اختلاف آرائهما السياسية ، ولم أسمع به ، على أنى أعرف عدة عائلات ينتمى فيها الزوج إلى حزب والزوجة إلى حزب آخر » .

على أن المرأة الأمريكانية منحت فى جميع الولايات المتحدة حظا عظيما من الحقوق العمومية . فلها أن تحترف بحرفة المحاماة وتترافع أمام جميع المحاكم . يوجد قضاة من النساء فى ولايات « كانسلس » و « بومنج » و « كولومبيه » و « شيلى » و « زيلندة » وغيرها ، وعين بعض أفرادهن فى وظيفة نائب عمومى . ويوجد عدد عظيم منهن فى نظارات الخارجية والداخلية والحربية .

أما عدد النساء المشتغلات بتحرير العقود الرسمية . والنساء القسيسات . والمهندسات ومديرات الجرائد . والمستخدمات فى الرصد خانات والبوستة والتلغرافات فلا يكاد يحصى .

وتشغل النساء أغلب الوظائف فى إدارة المعارف . فقد بلغ عددهن خمسا وتسعين فى المائة فى المدارس الابتدائية . قال « بول بورجيه »[1] الكاتب الفرنساوى الشهير فى كتاب حديث ألف عقب زيارته أمريكا فى وصف حال نسائها ما يأتى :

---

(١) روائى فرنسى (١٨٥٢ - ١٩٣٥ م) كان من أتباع المدرسة الطبيعية فى الأدب . ثم خرج عليها واعتنق المذهب الكاثوليكى . فغلبت الروح الدينية على رواياته .

« إذا زرت مدرسة عمومية وجدت البنات يدرسن مع الصبيان فى مكان واحد ، والأستاذ الذى يلقى الدرس رجلا أو امرأة بلا فرق . وإذا دخلت فى معمل علمى وجدت بنات محنيات الرءوس على آلة الميكروسكوب وبجانبهن شبان من طلبة العلم ، الكل مشتغل بفحص مسألة من علم التشريح ، ويزورك أحد مكاتبى الجرائد من غير أن يسمى نفسه فتجد إنه امرأة . وتروم استدعاء أحد الأطباء المشهورين فتجد عدد الأطباء من النساء مساويا لعدد الأطباء من الرجال ، وإن لم يكن مساويا فى بعض الجهات فهو من الكثرة بحيث لا يعد التطبيب منهن من قبيل النادر » .

ويكفى لبيان ارتقاء شأن المرأة الأمريكانية أن نقول : إنه تبين من الاحصائية التى عملت فى سنة ١٨٨٠ أن النساء المحترفات بالعلوم والأدبيات فقط بلغ عددهن خمسا وسبعين فى المائة و ٦٣ فى المائة فى التجارة و ٦٢ فى المائة فى الصناعة .

فإذا انتقلنا من أمريكا الى انكلترا ، وهى أقرب الأمم اليها ، وجدنا أن اشتغال النساء بالعلوم والصنائع لا يقل تقريبا عما يشاهد فى أمريكا ، فقد نتج من احصائيتها الأخيرة أن مليونا منهن يشتغلن بالعلوم والأدبيات وثلاثة ملايين بالتجارة والصناعة .

وللنساء الانكليزيات حق الانتخاب فى المجالس البلدية وفى مجتمعات المعارف والجمعيات الخيرية ، ولم يفت النساء التمتع بهذه المزايا حتى فى المستعمرات الانكليزية « كالكاب » و « كندا » و « استراليا » .

أما مسألة منحهن الحقوق السياسية فهى لاتزال فى دور التحضير ، وأول طلب تقدم من النساء الانكليزيات الى مجلس النواب كان فى سنة ١٧٦٦ ، وأمضى عليه ستمائة ألف امرأة وأول مشروع تقدم الى مجلس النواب لتخويلهن الحقوق السياسية كان

فى سنة ٦٧ [١] وكان من حسن حظه أن العلامة « استوارت ميل » [٢] هو الذى أخذ على نفسه المدافعة عنه أمام المجلس . فاكتسب فى الحال ثمانين صوتا من النواب . كما أذكر من بينهم « ديزرائيلى » [٣] و« غلادستون » [٤] .وفى سنة ٧٢ تقدم المشروع ثانيا ونال ١٥٩ صوتا وفى سنة ٧٣ نال ١٧٢ صوتا ومازال يتقدم من حين الى حين ويكسب أصواتا جديدة حتى توفرت له الأغلبية فى سنة ٩٧ فأقر عليه مجلس النواب ولم يبق لنفاذه إلا تصديق مجلس الأعيان .

وفى فرنسا لم تصل حركة الأفكار فى شأن النساء الى هذا الحد ، فعدد المشتغلات من النساء بممارسة العلوم قليل ، وعدد الموظفات فى المصالح الأميرية يكاد يكون محصورا فى مصلحة البوستة والتغراف والتليفون ، والحرفةالتى اتجهت اليها على الخصوص نساء فرنسا هى التجارة ، وقد خاب ظن « فيكتور هيجو » [٥] . أكبر شعراء العصر فى فرنسا الذى قال : (إن القرن الثامن عشر قرر

---

١ ـ أى سنة ١٨٦٧ م

٢ ـ هو الفيلسوف الانجليزى جون ستيوارت مل (١٨٠٦ ـ ١٨٧٣ م) صاحب الفلسفة التجريبية والمنطق الاستقرائى أصدر فى سنة ١٨٤٨ م كتابه [مبادىء الاقتصاد السياسى] كما اشتهر بأفكاره عن حرية المرأة ومذاهب المنفعة . والحرية .

٣ ـ بنيامين ايرل بيكنسفيلد (٨٠٤ ـ ١٨٨١ م) سياسى انجليزى . من أصل يهودى . تزعم حزب المحافظين وتولى رئاسة الحكومة ، ولعب دورا هاما فى سياسة بريطانيا الاستعمارية . كما كان مؤلفا كذلك .

٤ ـ وليم ايوارت (١٨٠٩ ـ ١٨٩٨ م) من الساسة الانجليز فى القرن الماضى ، تزعم حزب الاحرار ، ووصل الى رئاسة الوزارة .

٥ ـ فيكتورهوجو (١٨٠٢ ـ ١٨٨٥ م) أشهر أدباء فرنسا فى عصره . وهو شاعر وروائى وكاتب مسرحى ، وأعظم رواياته رواية البؤساء .

حقوق الرجال ، وسيقرر القرن التاسع عشر حقوق النساء) حيث قد انتهى القرن التاسع عشر ولم يتم شىء كبير من الاصلاحات التى يطالب بها كثير من رجال فرنسا ، غير أنه فى هذه السنين العشر الأخيرة حصل تقدم محسوس فى حركة الأفكار الفرنساوية انتهى بنيل النساء حق الانتخاب فى المجالس التجارية ، وفى العام الماضى صدر القانون الذى يخول النساء الاحتراف بصنعة المحاماة .

وحال النساء فى الممالك الأروباوية الأخرى لا يختلف إلا قليلا عن حال النساء فى فرنسا .

أما مملكة روسيا فمركزها الجغرافى قضى بأن تتأثر بالعادات الشرقية ، ولهذا فقد عاش نساؤها من أهل الطبقة العالية والطبقة الوسطى محجوبات ، كنساء الشرق ، مسجونات فى البيوت ، محرومات من التربية والتعليم . وليس لهن من الحقوق إلا ما تسمح به رحمة أزواجهن وأوليائهن ، ولم تبطل هذه العادة من البلاد الروسية إلا فى سنة ١٧٢٦ حيث صدر أمر عال من « بطرس الأكبر » [١] بإلغاء الحجاب مرة واحدة ، ثم تولت بعده الامبراطورة « كاترين » [٢] فتممت عمله واشتغلت من سنة ١٧٦٢ الى ١٧٩٧ بتأسيس المدارس للبنات ، ونشرت بينهن التربية العقلية والأدبية .

---

(١) بطرس الاكبر (١٦٧٢ ـ ١٧٢٥ م) هو بطرس الأول قيصر روسيا ومؤسس دولتها الحدية الذى ادخل فيها نمط التمدن الغربى . وبدأ فيها عصر الصناعة .

(٢) كاترين الثانية ، أو كاترين العظمى (١٧٢٩ ـ ١٧٩٦ م) امبراطورة روسيا وقيصرتها . لعبت دورا بارزا فى سياسة روسيا التوسعية والاستعمارية فى القرن الثامن عشر .

ولكن لما تولى الملك الكسندر الأول [١] ، وكان يبغض الحرية ، وقفت هذه الحركة حتى تولى الملك الكسندر الثانى [٢] ، وكان ميالا الى ترقية بلاده محبا لتقدمها فأبطل استعباد الرجال (السرفاج) وأنشأ مدارس كثيرة للبنات للتعليمين الابتدائى والثانوى كن يتعلمن فيها العلوم التى يتعلمها الذكور ، وأول مدرسة أنشئت على هذا النمط كانت فى سنة ١٨٥٧ ، ولكن لم يمض على هذه النهضة العظيمة زمن كبير حتى رأت الحكومة الروسية أن تقدم النساء فى المعارف له أثر كبير فى حالة الأمة السياسية ، وأن حزب المعارضين للحكومة أخذ ينمو فأقفلت فى سنة ١٨٦٢ أبواب المدارس العالية فى وجوه الرجال والنساء ، ولكن النساء لم يقبلن أن ينتكسن فى الجهل بعد أن ذقن طعم الحرية والعلم . فرحل الكثير منهن عن وطنه طلبا للمعارف . وأخذن يهاجرن إلى فرنسا وسويسرا وألمانيا لتحصيلها وطفقن فى مهاجرهن يطعن فى الحكومة وينشرن أفكارهن فى الكتب والجرائد ويشتركن فى المؤتمرات مع الرجال فكانت عاقبة إقفال المدارس اشتداد ثورة الأفكار عما كانت عليه من قبل . فطنت الحكومة إلى هذا الأمر وعرفت أنها أخطأت ، فقررت فى ١٨٨٩ إعادة تلك المدارس ، وقد زاد عددها من ذلك العهد إلى الآن زيادة ظاهرة .

هذا هو مجمل تاريخ حياة المرأة فى العالم . نلخصه فى كلمتين :

---

(١) الكسندر الأول (١٧٧٧ ـ ١٨٢٥ م) حكم القيصرية الروسية من سنة ١٨٠١ حتى سنة ١٨٢٥ م .

(٢) الكسندر الثانى (١٨١٨ ـ ١٨٨١ م) حكم روسيا من سنة ١٨٥٥ حتى سنة ١٨٨١ م .

عاشت المرأة حرة فى العصور الأولى حيث كانت الإنسانية لم تزل فى مهدها .

ثم بعد تشكيل العائلة وقعت فى الاستعباد الحقيقى .

ثم لما قامت الإنسانية على طريق المدنية تغيرت صورة هذا الرق . واعترف للمرأة بشىء من الحق ، ولكن خضعت لاستبداد الرجل الذى قضى عليها بألا تتمتع بالحقوق التى اعترف لها بها .

ثم لما بلغت الإنسانية مبلغها من المدنية نالت المرأة حريتها التامة وتساوت المرأة والرجل فى جميع الحقوق . أو على الأقل فى معظمها .

أربعة أحوال يقابلها أربعة أدوار من تاريخ التمدن فى العالم .

فالمرأة المصرية هى اليوم فى الدور الثالث من حياتها التاريخية . بمعنى أنها فى نظر الشرع إنسان حر له حقوق وعليه واجبات . ولكنها فى نظر رئيس العائلة وفى معاملته لها ليست بحرة بل محرومة من التمتع بحقوقها الشرعية . وهذه الحال التى عليها المرأة اليوم هى من توابع الاستبداد السياسى الذى يخضعنا ونخضع له .

ومع أن الاستبداد السياسى أصبح فى حالة النزع . وأشرف على الفوات ، بحيث لاترجى له عودة ، لا يزال الرجال عندنا يستبدون على نسائهم .

وما سبب ذلك إلا أن قوانيننا السياسية قد ارتقت قبل أن نرتقى ، وسبقتنا إلى ما لم نصل إليه بعد ، فهى تقرر أن كل فرد منا له أن يتمتع بحريته وحقوقه الشرعية ، لا فرق في ذلك بين الذكر والأنثى ، ونحن معاشر الرجال لم يزل راسخا فى طبعنا حب الاستئثار بمزايا الحرية وعدم احترام حقوق النساء .

وهذا يدل على أن سلطان الأخلاق القديمة لا يزال نافذا فى نفوسنا ، وله أثر ظاهر فى أعمالنا ، فقوانيننا وضعت لأمة حرة

وأخلاقنا لا تزال أخلاق أمة مسترقة ! لهذا نرى رجالا وردوا موارد العلم ، وتنقلوا من مدرسة إلى مدرسة ، ومن درجة إلى درجة . حتى حازوا على لقب علمي ، وفقهاء يعلمون الحقوق ، وشعراء من نوابغ العصر ، على ما يقول العارفون بفنهم وكتابا نصبوا أنفسهم لإفادة الناس بجرائد تلقب بالعلمية أو الأدبية أو الفنية أو ماشئت من هذه الألقاب . وخطباء مشهورين بحب الحرية والاستقلال . رأينا جميع من ذكرنا وعندما سمعوا القول بأن للمرأة حقا مهضوما . وأنها إنسان محروم ، أخذوا يتساءلون : هل يسوغ لها أن تخرج من سجنها ؟ أو يرفع عنها غطاء من جهلها ؟ وبعد طول التساؤل رجعوا إلى ما هو مركوز في طباعهم فأنكروا عليها هذا الحق . وحكموا عليها بأن تبقى في ظلمات الجهل وفي السجن المؤبد ؟ .

فهل كان ذلك لأن المسألة عويصة تحتاج إلى العناء في حلها وتقبل اختلاف الآراء فيها ؟ كلا ، وإنما نحن نتصور الحرية ، ولا نشعر في الحقيقة بحبها ، ونعرف حق الغير ولا نجد من أنفسنا احتراما له . نحن في دور التمرين على العمل بالأخلاق الحرة ، ونحتاج إلى زمن لترسخ في نفوسنا ، أما الأوربيون فإنهم يقدرون الحرية حق قدرها ، ويحبونها ويحترمونها في غيرهم كما يقدرونها ويحبونها ويحترمونها في أنفسهم .

وهذا شأن من له إحساس حقيقي بمزية فضيلة من الفضائل . فإنما الفاضل من يجل الفضيلة أينما كان مظهرها ، قال « كوندوروسية »[1] ، الأصولي الشهير في هذا المعنى : اما أن لا يكون حق حقيقي لأحد من الناس وإما أن يكون لكل فرد حق مساو لحق الآخر . ومن جرد غيره من حقه مهما كان دينه أو لونه أو صنفه فقد داس بقدميه حق نفسه .

(١) ماري جان أنطوان كوندورسية (١٧٤٣ - ١٧٩٤ م) فيلسوف ورياضي فرنسي . اشترك في الثورة الفرنسية . ثم اختلف مع بعض قادتها وألف كتابا هاما عن التقدم الإنساني . حتى الثورة الفرنسية

لهذا يشتغل محبو الترقى فى أوروبا وأمريكا لتحسين حال المرأة وإيصالها من الكمال فوق ما وصلت إليه الآن . وآلوا على أنفسهم أن يجاهدوا فى هذا السبيل حتى يبلغ النساء مرتبة الرجال فيساوينهم فى جميع الحقوق الإنسانية .

ولا أنكر أن عددا غير قليل من الغربيين لم يزل يجادل فى صحة اصل المساواة التامة بين الصنفين .

فهناك مذهبان يتزاحمان :

أحدهما : يكتفى بما وصلت إليه المرأة الغربية من الحرية والحقوق .

والثانى : يطلب الازدياد فيها حتى لا يبقى فرق بين الصنفين .

هكذا انقسم العالم الإنسانى فى كل أمر إلى فريقين ، فريق المحافظين ، وفريق المصلحين كلاهما يريد الخير ويطلب السعادة للنوع ولكنهما يختلفان فى طريق الخير وسبل السعادة .

ومن تتبع سلسلة التاريخ فى جميع الأزمان يعلم علم اليقين ان المراة فى كل زمان وفى كل مكان قائمة بوظيفتها الطبيعية . ولكنها مستعدة بضروب من الاستعداد إلى ضروب من الكمال وانها سارت وتسير فى طريق الكمال التدريجى متنقلة من منزلة إلى أرقى منها ومن مرتبة إلى أرفع منها .

فالقول بلزوم بقائها على حال واحدة لا تتغير ولا تتبدل هو خروج بها عن القوانين الطبيعية التى قضت بتغير حالها فى الماضى وتهيئتها الآن للانتقال من طورها الحالى إلى طور آخر .

وبالجملة . فالاختلاف بيننا وبين الغربيين منشؤه أن الغربيين فهموا طبيعة الإنسان واحترموا شخصيته فمنحوا المرأة ما منحوا أنفسهم من الحقوق فى جميع ما يتعلق بالحياة الخاصة ولم ينازعها

احد منهم فى حق التمتع بحريتها فى الأعمال البدنية والعقلية . إلا ما حرمته الآداب وسووا بينها وبين الرجل فى كل ذلك ، وإنما اختلفوا فى مسألة مساواتها بالرجل فى الحياة العامة فيرى بعضهم أن اشتغالها بالأعمال يخرجها عن دائرة وظيفتها الطبيعية ويرى البعض الآخر ان هذه الوظيفة الطبيعية لا تشغل حياة المرأة كلها ولا تشغل كل امرأة فقرروا المساواة بينها وبين الرجل أيضا فيما يتعلق بالحياة العامة .

أما نحن فإننا لا ننظر إلى المرأة نظرنا إلى الرجل ، ولم تستعد عقولنا إلى إدراك هذه الحقيقة الظاهرة وهى أن المرأة إنسان مَثل الرجل ، فجردناها عن استعمال جميع حقوق الإنسان وحرمناها من جميع مزايا الحياة الخاصة والعامة ، أما اشتغال المرأة بالأعمال العامة فهو مما لا يدخل تحت مطالبتنا فى هذا الكتاب ، ولهذا لا نرى فائدة فى الكلام فيه . وأما ما يتعلق بالحياة الخاصة للمرأة فهو الذى نقصد البحث فيه ، وهذا البحث يتناول ثلاث مسائل :

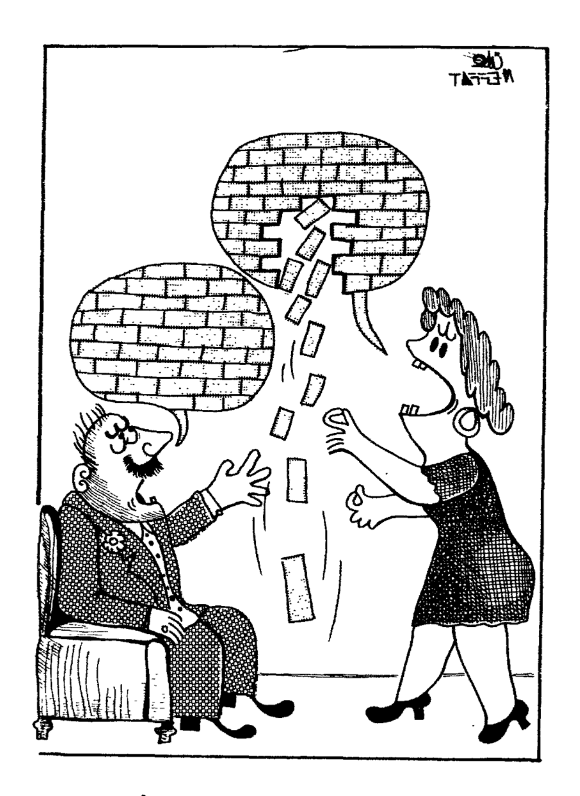
الأولى : حرية المرأة .

الثانية : الواجب على المرأة لنفسها .

الثالثة : الواجب على المرأة لعائلتها .

وسنتكلم عليها على هذا الترتيب ويلى ذلك مبحث فى التربية والحجاب ثم خاتمة تحتوى على حالة الأفكار الآن فى مصر بالنسبة للنساء .

● ● ●



حرية المرأة

لم يخطىء قدماء الفلاسفة[1] فى مسألة خطئهم فى معنى الحرية الإنسانية . وذلك انهم كانوا يعتقدون أن الله خلق الناس على قمسين : قسم ميزه بالحرية ، والقسم الآخر : قضى عليه بالرق .

وكانت معيشة الأحرار بعيدة عن الاستقلال ومتأثرة بسلطة رؤساء العائلات ورؤساء الحكومة .

والتاريخ يحدثنا بأن الحكومة فى تلك الأعصر الحالية كانت تتداخل فى كل ما يتعلق بالحياة الخاصة ، وكان لها الشأن الأول فى نظام العائلة والتربية والديانة والأخلاق والعواطف . حتى إنها كانت تحدد فى المعاملات التجارية أثمان البضائع . وقد وصلت بها الأثرة بالتداخل فى شئون الحياة الخاصة إلى حد أن قوانين اليونان القديمة كانت تحجر على النساء الخروج من منازلهن إلا فى أحوال مبينة . فكانت المعيشة الاجتماعية هى أشبه شىء بالعيشة العسكرية ، يأمر الحاكم حينما يريد بما يريد وما على المحكومين إلا أن يطيعوا أوامره .

ولما تقدم العالم فى المدنية تخلص الفرد شيئا فشيئا من سلطة الهيئة الاجتماعية . ووسع فى دائرة حريته . وانعكس الأمر . فما كان فى السابق اصلا عاما أصبح الآن من المستثنيات . ومن ثم صارت غاية التمدن أن ينال الفرد أقصى ما يمكن من الاستقلال والحرية .

---

(١) المراد هنا فلاسفة اليونان . ولقد جاء فكرهم عن الحرية على هذا النحو لأن الرق كان ركنا من أركان المجتمع الذى عاشوا فيه . ومن هنا . كذلك . كان تمييزهم . الذى أبرزوه . بين العمل الذهنى والعمل اليدوى .

ذلك لأن الإنسان ترقى فى فكره . فهو يرى ان تسليم نفسه إلى تصرف الحاكم أمر لاتسلم به منزلته من الإنسانية . ولا يتفق مع راحته وسعادته . ولهذا فهو لايقبل ان يتنازل لأحد عن حريته . ولا أن يأتمن أحدا عليها ولو كان أقرب الناس إليه . ولا يسمح بأن يترك منها إلى الحكومة إلا بقدر ما يلزم تركه نتتمكن من تاديه وظيفتها وهى المحافظة على الأمن العام فى الداخل والمدافعة عن سياج الأمة فى الخارج . وأيضا القيام بالأعمال التى تعود منفعتها على الجميع .

بحسب هذا الشرط يخضع الفرد إلى ما تقرره عليه من الأعمال والأموال ، أما إذا أرادت الحكومة أو أى فرد من الناس أن يدخل فى عمل من أعماله أو شأن من شئونه الخاصة فإنه يشعر بثقل الضغط عليه ويجد فى نفسه ألم الظلم .

ولذلك سببان :

الأول : ان رأى الحاكم ان طابق هوى شخص فقد يخالف أهواء الأغلب .. لأن الأمزجة مختلفة والغرائز متباينة والأذواق متفاوتة على حسب الأشخاص والأعمار والأزمان والأمكنة . فوضع قاعدة واحدة لجميع الأعمال الخاصة بكل فرد لايسهل على الطبائع البشرية قبوله .

والثانى : ما دلت عليه التجارب من أن تداخل الحاكم فى الشئون الخاصة للأفراد يضعف من قواهم . ويحرمها القدرة على تأدية وظائفها . ويورث النفوس الخمود والعجز عن العمل . والاتكال على الغير . وهو وان أشعر بعض النفوس لذة الكسل والخلود إلى الراحة لكنه يعود عليها بالخسة وشقاء المعيشة .

فالحرية هى قاعدة ترقى النوع الإنسانى ومعراجه إلى السعادة .

ولذلك عدتها الأمم التى أدركت سر النجاح من أنفس حقوق الإنسان .

ومن المعلوم أن المقصود من الحرية هنا هو استقلال الإنسان فى فكره وإرادته وعمله متى كان واقفا عند حدود الشرائع محافظا على الآداب ، وعدم خضوعه بعد ذلك فى شىء لإرادة غيره . اللهم إلا فى أحوال مستثناة كالجنون والطفولية ، حتى بالنسبة للأطفال رأى علماء التربية الصحية أن الضغط على الأطفال مميت لعزيمتهم ، ورجحوا أن يترك الطفل يتصرف فى نفسه بحرية ، وإنما على والديه إرشاده ونصحه .

فهذه الحرية على ما بها من سعة هى التى يجب ان تكون اساسا لتربية نسائنا . يتعجب بعض الناس من طلبى تحويل الحرية للنساء ، ويتساءلون : هل هن فى قيد الرق ؟ ولو فهموا معنى الحرية لما ختلفوا معنا فى الرأى :

ليس مرادنا أن نقول ان المرأة اليوم تباع وتشترى فى الأسواق . ولكن ليس الرقيق هو الانسان الذى يباح الاتجار به فقط ، بل الوجدان السليم يقضى بأن كل من لم يملك قياد فكره وإرادته وعمله ملكا تاما فهو رقيق ! .

لا أظن أن القارىء يختلف معى فى الرأى أن قلت : ان المرأة فى نظر المسلمين . على الجملة . ليست انسانا تاما ، وان الرجل منهم يعتبر ان له حق السيادة عليها ، ويجرى فى معاملته معها على هذا الاعتقاد ، والشواهد على ذلك كثيرة .

فليس من الأدب فى كثير من العائلات الا تقبل المرأة يد الرجل عند السلام عليه ولا من الأدب أن تجلس النساء مع الرجال ، ولا من الأدب أن يأكلن معهم ، وقد رأيت مراراً بعينى أن الرجل يجلس على مائدة الطعام وامرأته قائمة تطرد الذباب عنه وبنته تحمل قلة الماء !

نعم ان معاملة الرجل للمرأة على هذه الطريقة الفظة المستهجنة تشاهد فى الغالب فى بعض الطبقات ، خصوصاً فى بلاد الأرياف . لكن استعباد المرأة فى الطبقات الأخرى وفى المدن موجود على أشكال أخرى .

فالرجل الذى يحجر على امرأته ألا تخرج من بيتها لغير سبب سوى مجرد رغبته فى أن لاتخرج لا يحترم حريتها ، فهى من هذه الجهة رقيقة ، بل سجينة ، والسجن أشد سلبا للحرية من الرق . ولا يقال إن عدد الرجال الذين يسجنون نساءهم صار اليوم قليلا ، فإنه وان قل بالنسبة إلى الماضى لكن كلنا نعلم أن من النادر جدا أن تكون المرأة متروكة لإرادتها واختيارها فى ذهابها وإيابها على أن كلامنا الآن إنما هو فى مقام المرأة فى نفس أغلب الرجال وما يجب عليها فى اعتقادهم أن تعمل به وان تكون عليه . فسواء قل احتباس المرأة أو لم يقل فالمرأة المقصورة فى بيتها التى لاتفارقه عندهم خير امرأة .

ولو أخذ المسلمون برأى الجهال من فقهائهم . وهم أهل الرأى عندهم ، لرأوا من الواجب عليهم أن يسجنوا نساءهم وألا يسمحوا لهن بالخروج إلا لزيارة الأقارب فى العيدين ، ورأوا من الأفضل الا تخرج من بيتها فى جميع الأحوال ، وقد عدوا من مفاخرهم الا تخرج المرأة من خدرها إلا محمولة إلى قبرها ! .

ولا شك أن تقرير الحق للرجل فى سجن زوجته ينافى الحرية التى هى حق طبيعى للإنسان .

والمرأة التى يسوقها والدها كالبهيمة إلى زوج لا تعرفه ولا تعرف شيئا من أحواله معرفة تسمح لها بأن تتبين حقيقة أمره وتحصل لنفسها رأيا فيه لا تعتبر حرة فى نفسها ، بل تعد فى الحقيقة رقيقة ، ومن المعلوم أن عموم الآباء فى جميع طبقات الأمة يزوجون بناتهم على هذه الطريقة ، فيتخابرون مع الخطاب ثم

يعقدون عقد الزواج ، أما هن فلا رأى لهن فى هذا الأمر الخطير الذى تتعلق به سعادتهن وشقاؤهن فى المستقبل ، ولا يقال إن حال الرجل فى ذلك كحال المرأة إذ هو أيضا لا يعلم من أحوال مخطوبته شيئا ، لأن الرجل يمكنه أن يتخلص من عواقب جهله بأن يطلقها فى أى وقت شاء أو يتزوج غيرها مثنى وثلاث ورباع ، أما المرأة التى تبتلى برجل لاترضى نفسها بمعاشرته فليس لها إلى الخلاص منه سبيل ، فتزويج المرأة برجل تجهله ، وحرمانها حق التخلص منه . مع إطلاق الإرادة للرجل فى إمساكها وتسريحها كيف يشاء ، هو استعباد حقيقى .

والمرأة التى يجب ألا تتعلم فروض العبادة ، كما يقول الفقهاء ومن أخذ عنهم ، أو يجب ألا تتعلم إلا مقدارا محدودا من مبادىء بعض العلوم ، تحسب رقيقة ، لأن قهر الغرائز الفطرية والمواهب الإلهية على لزوم حد مخصوص ومنعها عن النمو إلى أن تبلغ الكمال الذى أعدت له يعد استعباداً معنوياً .

والمرأة التى تلزم بستر أطرافها والأعضاء الظاهرة من بدنها بحيث لا تتمكن من المشى ولا الركوب ، بل لاتتنفس ولا تنظر ولا تتكلم إلا بمشقة ، تعد رقيقة ، لأن تكليفها بالاندراج فى قطعة من قماش إنما يقصد منه أن تمسخ هيئتها وتفقد الشكل الإنسانى الطبيعى فى نظر كل رجل ما عدا سيدها ومولاها .

وبالجملة ، فالمرأة من وقت ولادتها إلى يوم مماتها هى رقيقة ، لأنها لا تعيش بنفسها ولنفسها ، وإنما تعيش بالرجل وللرجل . وهى فى حاجة إليه فى كل شأن من شئونها ، لا تخرج إلا مخفورة به . ولا تسافر إلا تحت حمايته ولا تفكر إلا بعقله ، ولا تنظر إلا بعينه . ولا تسمع إلا بإذنه . ولا تريد إلا بإرادته ولا تعمل إلا بواسطته ، ولا تتحرك بحركة إلا ويكون مجراها منه . فهى بذلك لا تعد إنسانا مستقلا . بل هى شىء ملحق بالرجال .

انظر إلى صبى لا يزيد عمره عن خمس عشرة سنة ، وقارن بينه وبين والدته ، تجد أنها أحط منه فى العقل والمعلومات والتجارب . وأنه أكبر منها شأنا ، ليس فقط فيما يتعلق بالأمور الخارجة عن المنزل بل فى نفس بيتها .

كيف لا وهو الذى يأمر وينهى فيه . وهو الذى ينوب عنها فى اشغالها وإدارة بيتها وتدبير ثروتها ؟

أنظر إلى امرأة تمشى فى الطريق ، ومعها خادم ، تجد فى نفسك لأول وهلة أن الخادم يشعر من نفسه أنه هو صاحب الإرادة والرأى والقوة ، وكأن لسان حاله يقول : إنى أؤتمنت على هذه الذات الجاهلة الضعيفة وعلى ملاحظتها وحراستها وحمايتها . لاحظ أن امرأة محجبة تمر على جماعة من أهل الخلاعة تجد انهم لايتحاشون من اسماعها كل ما يخطر على بالهم من العبارات المخلة بالآدب . وفى بعض الأحيان يترامون عليها بأجسامهم ويلمسونها بأيديهم مع انه لم يصدر من تلك المرأة حركة يرتاب فيها وتغريهم بالاندفاع عليها والتهافت على هذه الأفعال القبيحة ، لم تصبر المرأة على هذا الاعتداء من الرجال ساكنة خائفة لا تنبعث إلى دفاع ؟ ولم لايجرؤ هؤلاء الرجال على إتيان ما يأتونه من الأقوال والأعمال الشنيعة مع امرأة سافرة ؟ هل ذلك لأن المرأة المبرقعة أشد فتنة للرجال بجمالها من النساء السافرات ؟ كلا وإنما وقر فى نفوس الرجال عندنا أن البرقع والحبرة هما عنوان الجهل والضعف وآية الانخداع ، ورأوا فى عائلاتهم ان المرأة ليست محترمة ، ولا تحس باحترامها لنفسها ، وأنها سهلة القياد . لينة المغمز ، تتبعه لأول إشارة بيدها أو كلمة يرميها ، وأنها تخشى الرجل ولا تجرؤ على تأديبه ، فاستخفوا بها ، وتجاسروا على امتهانها ، وتعودوا على ألا يحترموا امرأة مبرقعة إلا إذا وجد معها رجل ولو كان خصيا !

فهل هذه الذات الحقيرة متمتعة بحريتها ؟ وهل مع هذا الامتهان تعد نفسها نفس إنسان ؟

سيقول قوم : كيف لمدع أن يدعى أن المرأة مستعبدة عندنا ، مع إنا نراها فى مكانة من السلطان على قلب الرجل منا بحيث تسخره لإرادتها وأهوائها ، وتصرفه عن أعماله لقضاء رغائبها ، وأن الرجل ليتجشم الاسفار ويتردد بين المدينة والأخرى لينتقى لزوجته لباسا او يختار لها نوعا من أنواع الحلى يرضى بها هواها ويقضى به رغبتها ليستجلب رضاها ، ثم هى سيدة بيته . لايرفع فيه إلا مارفعت ولا يضع فيه إلا ماوضعت ، فهل مع هذا كله يقال إن المرأة مسترقة للرجل ؟نعم ، لا ننكر شيئا من هذا كله ، ولكننا ننكر أن يكون ذلك عاما عند جميع الناس ، كما ننكر أنه ناشىء عن احترام الرجل للمرأة واعتقاده باستحقاقها لهذه المعاملة بما لها من العقل والأدب وما كسبته من حق الصحبة الناشىء عن عقد الزواج . وإنما يرفع المرأة أحيانا إلى تلك المنزلة افراط فى الشهوة من الرجل يحدثه براعة فى الجمال أو تفنن فى ضروب الاحتيال ، فهى سيدته ما تعلقت بها شهوته ، فإذا خمدت نيران الشهوة وعاد ما بينهما إلى المعروف مما بين رجل وزوجته سقطت المرأة من أوج عزتها إلى حضيض الذلة ولبست ثياب الاسترقاق .

سيقال أيضا : إن حرية المرأة تستلزم فى الواقع أن يعاملها الرجل باحترام ، وألا يضغط على إرادتها وفكرها ، وأن يسمح لها بالخروج للزيارة والرياضة ، ولكن ما العلاقة بين حريتها وكشف وجهها واختلاطها بالرجال ومعاملتها لهم ؟ فالجواب : إن الزام النساء بالاحتجاب هو أقسى وأفظع أشكال الاستعباد ، ذلك لأن الرجال فى أعصر التوحش كانوا يستحوذون على النساء ، إما بالشراء كما بيناه وإما بالاختطاف .

وفى كلتا الحالتين كانوا يعتبرون أنفسهم مالكين نساءهم ملكا تاما وتبع ذلك أن الرجل جرد امرأته عن الصفات الإنسانية وخصصها بوظيفة واحدة وهى أن تمتعه بجسمها . فأقرها فى مسكنه . وألزمها بأن تلازمه ولا تخرج منه حتى لا يكون لأحد غيره حظ فى أن يتمتع بها ولو بالنظر أو الحديث ، شأن المالك الحريص على ملكه الذى يريد أن يستأثر بجميع مزايا المتاع الذى يملكه .

ولما كان من المحال ألا تعرض ضرورة تقضى على المرأة بالخروج من منزلها فى بعض الأحيان أراد أن يتبعها بالحجاب حيث سارت فألزمها بستر وجهها إذا خرجت .

هذا الحجاب الذى قرره الرجل فى الأصل على زوجته تعدى بعد ذلك إلى البنات والأمهات والأخوات وإلى عموم النساء ، لأن كل امرأة هى زوجة أو كانت زوجة أو مستعدة لأن تكون زوجة .

فالحجاب هو عنوان ذلك الملك القديم ، وأثر من آثار تلك الأخلاق المتوحشة التى عاشت بها الإنسانية أجيالا قبل أن تهتدى إلى إدراك أن الذات البشرية لا يجوز أن تكون محلا للملك لمجرد كونها أنثى ، كما اهتدت إلى أن تفهم أن سواد البشرة ليس سببا لأن يكون الرجل الأسود عبداً للأبيض .

وليس من الغريب بقاء الحجاب بعد زوال السبب الذى أوجده ، أى بعد خروج المرأة عن ملكية الرجل ، فقد جرت سنة الله فى خلقه بأن الانتقال من طور إلى طور آخر لايكون دفعة واحدة . وإنما يحصل بضروب من التغيير ربما لا يحس بها من كانوا موضوعا لها ، فكثيرا ما يظن الناس استحالة انتقالهم عن حالة من الحالات مع انهم سائرون عنها منتقلون إلى غيرها متحولون إلى أرادأ أو أحسن منها ، وهم لا يشعرون ، حتى إذا انتهت الحركة إلى غايتها ظهر لهم انهم صاروا إلى الطور الذى كانوا من قبل ينكرون .

فلما بطل حق ملكية الرجال على النساء اقتضت سنة التدريج ان

تعيش النساء فى حالة وسط بين الرق والحرية حالة اعتبرت فيها المرأة انها انسان . لكنه ناقص غير تام ، كبر على الرجل ان يعتبر المرأة التى كانت ملكا له بالأمس مساوية له اليوم ، فحسن لديه أن يضعها فى مرتبة أقل منه فى الخلقة . وزعم أن الله لما خلق الرجل وهبه العقل والفضيلة وحرمها من هذه الهبات ، وانها لضعفها وقلة عقلها وميلها مع الشهوات يلزم أن تعيش غير مستقلة تحت سيطرة الرجل وان تنقطع عن الرجال وتحتجب بأن تقتصر فى بيتها وتستر وجهها إذا خرجت حتى تفتنهم بجمالها أو تخدعهم بحيلها ، وانها ليست أهلا للرقى العقلى والأدبى فيلزم ان تعيش جاهلة .

وذلك هو السر فى ضرب الحجاب . وعلة بقائه إلى الآن ، فأول عمل يعد خطوة فى سبيل حرية المرأة هو تمزيق الحجاب ومحو آثاره .

ولما كانت تهمة المرأة بنقصان العقل هى الحجة التى اتخذها الرجال لاستعبادها وجب علينا أن نبحث فى طبيعة المرأة لنعلم إن كانت ، كما يقال ، أحط من طبيعة الرجل أم لا ؟ .

إذا سألنا الرأى العام فالجواب سهل معلوم .

ولكن الرأى العام لا يصح أن يكون له صوت فى مسألة علمية كهذه ، لأن مبنى الرأى العام القضايا المشهورة ، التى صاغتها العادة وقررتها الألفة بدون بحث ولا تنقيب ، فهى مرجع العامة فى احكامها يردون إليها كل حادث طبيعى أو اجتماعى لا يعرفون أسبابه ، والرأى العام يعتبر أن تغير كل عادة ألفها مخالف للطبيعة لأنه لا يفرق بين العادة والطبيعة حيث يظن أن ما هو حاصل الآن كان كذلك وسيبقى إلى الأبد .

ولا ريب أن المرأة اليوم أحط من الرجل فى الجملة ، ولكن علينا أن ننظر هل هذه الحال طبيعية لها أو ناشئة عن طرق تربيتها ؟

تلك هى المسألة التى يلزمنا لحلها أن نرجع إلى الأصول العلمية لنعلم ما تقرره فيها .

رأى العلماء أنه لا يصح الحكم على طبيعة المرأة ومبلغ استعدادها للكمال الإنسانى بآثارها التى صدرت منها إلى الآن .

وإنما يصح ذلك بعد أن تملك من حريتها ما يملك الرجل وبعد أن تشتغل بتثقيف عقلها مدة من الزمن تساوى المدة التى قضاها الرجال فى تربية ملكاتهم العقلية والأدبية ، غير أنهم حكموا بأن المرأة ليست مثل الرجل فى الخلقة وأنه يوجد بين الصنفين اختلافات تشريحية وفسيلوجية يمتاز بها كل صنف عن الآخر ، ولكن ليس فى هذه الاختلافات ما يدل على أن أحد الصنفين أرقى من الآخر أو أحط منه .

ذلك ما يستنتج من كلام العلامة « جاك لوربيب » فى كتابه المسمى [المرأة امام المعلم] .

وقال الاستاذ فرشلو : « انى ألقيت دروسا كثيرة فى العلوم الحسابية وعلوم الأخلاق والفلسفة لطلبة العلم ، وكان بينهم كثير من النساء ، والذى شاهدته بنفسى هو انه لا يوجد فرق بين الصنفين ، وكانت نسبة الدرجات بينهما واحدة » .

وقال العلامة « مانتجازا » ، المدرس لعلم الإنسان والعضو فى مجلس الشيوخ الطليانى فى كتاب جديد سماه [فسلوجيا المرأة] : « جميع المناقشات عبث إذا أريد أن يتوصل بها على اختلاف القوى العقلية بين الصنفين » ثم قال :

« ماأكفر الرجل ! ألجأه كبره أن يزور حتى فى علم التشريح ، فلم

يكتف بأن يغتصب المحل الأول في العالم ، بل أراد أن يبرهن أن المراة أقل منه في الإنسانية وأنها في مرتبة بين القرد والإنسان ، ولهذا فيكون له الحق في أن يجردها عن الحقوق التي منحها نفسه كأنه نسي أن الذات التي يريد أن يحط بقدرها هي أمه ، والحقيقة أن المراة أمام علم التشريح ليست أقل درجة من الرجل ولا أرقى منه ، وإنما تختلف عنه ، لأن لها وظائف تقوم بها غير وظائف الرجل » .

وقد بين هذا العالم الاختلافات الدقيقة التي توجد بين الرجل والمراة بالنسبة للإحساسات والعواطف ، فقال ما ملخصه :

« إن السبب في أهم ما تختلف فيه المرأة عن الرجل من الجهة الأدبية هو الاستعباد الذي استولى على المرأة زمانا طويلا حيث تغلب الرجل على المرأة في الطبقة السفلى بقوة عضلاته وفي الطبقات الأخرى بعلو معارفه وتربيته ، وهذه المنزلة المنحطة قضت على المرأة بأن تستعمل حيل الرقيق لتدافع عن نفسها ، ويظهر أن الرجل يمتاز عليها بقوة عزيمته وزيادة الثبات في أعماله ، ولكنها تمتاز عليه في قوة الإحساس وتحمل الآلام ، وهي تصبر على الأمراض والعمليات الجراحية صبراً يعجز عنه الرجل ، وربما كان السبب في ذلك أنها أقل أثرة من الرجل أو انها اعتادت على الاستسلام والخضوع .

وتمتاز المراة على الرجل أيضا بأنها اضعف شهوة منه ، فالحب عند الرجل ميل شهواني إلى استيفاء اللذة الجسدية ، والحب عند المراة وداد قلبي غايته امتزاج الروحين ، واستدل على ذلك بأن الرجال يستعملون جميع أنواع الحيل والخديعة مع النساء لاستمالتهن ، والكثير منهن مع ذلك يدافعن عن عرضهن ويتغلبن

على شهواتهن وقال : إنه إذا عكس الأمر وفرضنا انه أبيح للنساء ان يستعملن مع الرجال لاستمالتهم ما يستعمله هؤلاء الآن مع النساء فربما لم يستطع رجل أن يحافظ على عفته !.

وقال : « ان حب المرأة للخير من المألوفات المشهورة ، أما الرجل فيسود عنده حب النفس ، لذلك تراه يفتكر أولا فى نفسه ثم فى أولاده ، بخلاف المرأة ، فهى تفكر أولا فى غيرها ثم فى نفسها ، فهمّ الرجل أن يكون سعيدا ، وهمّ المرأة أن تجعل الغير سعيدا ، وهذا الإحساس يشاهد فى جميع أعمال الحياة ، صغيرها وكبيرها ، وأعظم مثال لإيثار المرأة غيرها على نفسها هو حب الأم لولدها ، فهى تحبه أكثر مما يحبه أبوه ، وتحبه مهما كانت عيوبه بل يمكن أن يقال انه كلما كان والدها سيىء البخت زاد حبها له ، والأب على عكس ذلك » .

فالمرأة فى رأى أعظم العلماء وأدقهم بحثا مساوية للرجل فى القوى العقلية ، وتفوقه فى الإحساسات والعواطف ، وإنما يظهر للناظر وجود فرق عظيم بينهما فى العقل لأن الرجال اشتغلوا أجيالا عديدة بممارسة العلم فاستنارت عقولهم وتقوت عزيمتهم بالعمل بخلاف النساء فإنهن حرمن من كل تربية ، فما يشاهد الآن بين الصنفين من الفروق هو صناعى لا طبيعى .

لا نريد بهذا التساوى أن كل قوة فى المرأة تساوى كل قوة فى الرجل وكل ملكة فيها تساوى كل ملكة فيه ، ولكنا نريد أن مجموع قواها وملكاتها يكافىء مجموع قواه وملكاته وإن كان يوجد خلاف كبير بينهما ، لأن مجرد الخلاف لا يوجب نقص احد المتخالفين عن الآخر .

فعلى أى دليل علمي يستند الرجال لاستعباد النساء ، وبأى حق جاز لهم أن يحرموهن من حريتهن ؟ لنفرض جدلا أن عقل المرأة أقل من عقل الرجل ، فهل نقصان العقل فى شخص يبيح أن يجرد من حريته ؟ اما يوجد بين أفراد الرجال اختلاف فى العقول أكبر من الاختلاف الموجود الآن بين الرجال والنساء ؟ أليس عقل المصرى يختلف باختلاف طبقات الأمة المصرية ، ومع ذلك نرى جميع الرجال متساوين فى تمتعهم بحريتهم البدنية ؟ ألا يوجد بين نسائنا المصريات من هن أكبر عقلا وأكمل أخلاقا من ازواجهن أو آبائهن أو ابنائهن ؟.

لا يصح أن يكون اختلاف العقول سببا لتجريد الإنسان عن حريته بل الذى يجر إليه الاختلاف إنما هو أن يعلو فكر على فكر فيقوده بقوة الإقناع أو تسود إرادة على إرادة بقوة الاستمالة حتى تسخرها على طوع منها .

ما قررته الشريعة الإسلامية من حقوق المرأة ـ وقد أشرنا إليه فى ما تقدم ـ يقودنا إلى ان هذه السلطة الأدبية هى التى ترمى إليها الآية الشريفة التى ذكرت ان الرجال قوامون على النساء ، وقد نحت الشرائع الأوربية هذا النحو فخولت للرجل مثل هذه السلطة على زوجته وسمتها سلطة الزوجية ، ومع ذلك فكل إنسان يرى النساء الغربيات متمتعات بحريتهن .

لنفرض جدلا أيضا ان حجاب النساء وسيلة لصيانتهن عن الفساد فهل يكفى ذلك لحرمانهن من حريتهن ؟.

إذا كانت معاملة الرجال للنساء مجلبة للفساد فلماذا تداس حرية المرأة وتحترم حرية الرجل ؟ هل يختلف نظر العدل بالنسبة إلى الرجل والمرأة وهل يوجد حقان حق للرجال وحق للنساء ؟ أليس كل ذى اختيار موكولا إلى اختياره يتصرف به كيف يشاء متى لم يخرج فى عمله عما حدده له الشرع والقانون ؟.

نرى أن مسئولية المرأة فى هذه الدنيا ، وفى الآخرة ، لا تقل أمام الشرع عن مسئولية الرجل ، ونرى ان القوانين لا تعافيها من العقوبات إذا ارتكبت جريمة . ولا تقضى بتخفيف عقوبتها . بل نرى ان الرأى العام جسم مسئوليتها حتى جعلها أشد من مسئولية الرجل ، فإذا استهوى رجل عمره أربعون سنة بنتا عمرها خمس عشرة سنة ، وانتهز فرصة ضعفها وفسق بها يحكم الرأى العام ان هذه البنت الصغيرة هى التى فقدت شرفها ، ويهمل شأن الرجل كأنه لم يأت منكرا ! أليس ذلك لأن الشرع والرأى العام يعترفان ان المرأة مسئولة عن أعمالها ؟ فإن كانت مسئولة بهذه الدرجة أليس ذلك لأن الشرع والرأى العام يعترفان أيضا بأنها حرة مختارة ؟.

لا أظن ان عقلا يقبل ان تعتبر المرأة انسانا كامل العقل والحرية من جهة استحقاقها لعقوبة الشنق إذا قتلت ، ثم تعتبر أنها ناقصة العقل ، بحيث تحرم من حريتها فى شئون الحياة العادية !.

اعتقاد الرجل ان امرأته إذا منحت حريتها تسىء استعمالها لا يبيح له حرمانها منها ، لأنه لا يباح لإنسان أن يتعدى على آخر بسلب حريته والسيطرة على إرادته بحجة أنه يريد منعه من ارتكاب خطيئة . ولو جاز لدفع ضرر محتمل الوقوع تجريد الإنسان عن حريته لوجب وضع تسعين فى المائة من الرجال تحت قانون الحجاب منعا لهم من الفساد!.

بل لو قبلت المرأة أن يوضع عليها الحجاب لم يعتبر قبولها هذا التزاما صحيحا بحيث يمتنع عليها بعد ذلك أن تحل عقدته ، لأنه التزام باطل ، لمنافاته للطبيعة البشرية والقواعد الشرعية .

على أن ما قيل من أن حرية النساء تعرضهن للخروج عن حدود العفة كله كلام لا أصل له ، تبطله التجارب وينبذه العقل ، إذ التجارب المؤسسة على المشاهدات الصحيحة تدل على أن حرية النساء تزيد فى ملكاتهن الأدبية وتبعث فيهن إحساس الاحترام لأنفسهن وتحمل الرجال على احترامهن .

ولا نذهب فى تأييد هذا الرأى مذهب غيرنا بالاتيان باحصاء مخترع لا حقيقة له نشره بعضهم فى الجرائد الهزلية تفكهة للقراء ، ونسب فيه إلى أحد العلماء أنه شاهد أن المرأة الألمانية تخون زوجها سبع مرات ! والبلجيكية ست مرات وأربعة أخماس المرة ! والهولندية أربع مرات ! والطليانية مرة وخمسة أسداس ! والفرنساوية مرة واحدة ! وهكذا إلى أن وصل إلى التركية ، والمراد بها الشرقية ، إنها لا تخون زوجها إلا عشر المرة الواحدة !.

فقد انتهى الهذيان بالمعتمد على مثل هذا الإحصاء الى الاعتقاد بان ما نشر فى تلك الجريدة على سبيل الهزل هو من (الأبحاث العلمية الدقيقة المستندة على الأرقام) ، ولم يمر بفكره أن الحصول على إحصاء فى مثل هذا الموضوع هو من الأمور المستحيلة ، لأن وقائع الزنا لا يمكن إحصاؤها إلا إذا وصلت المحاكم ، ومعلوم انه لا يصل إلى المحاكم منها إلا النادر .

ولا نسند رأينا إلى قضايا مسلمة تؤخذ من غير دليل ، كما يفعل اولئك الذين يدعون أن المرأة متى جلست مع الرجال فى مكان واحد مدة خمس دقائق وجب محو اسمها من قائمة النساء الفاضلات !. فإن كل قضية لا ترجع إلى أحد أنواع البديهات المعروفة عند أهل النظر لا تصح أن تكون مقدمة لدليل ، أولئك جماعة لو طولب الواحد منهم بدليل على ما يقول لما وجد فى خزانة مخه إلا أن الرجل والمرأة هما دائما فى طوع شهواتهما ، هكذا شأنهم ، يستعملون من أنفسهم الأخلاق التى جبلوا عليها ، ويعتقدون انها أخلاق الإنسانية كلها ، فهم فى نظر أنفسهم يمثلون الرجل من حيث هو ، والمرأة على حالتها المعهودة اليوم تمثل فى نظرهم المرأة من حيث هى ، وما دروا أن الرجال يختلفون فى أخلاقهم ومزاياهم إلى مالا نهاية له ، على حسب الزمان والمكان وطرق التربية ، وأن المرأة تختلف خلائقها وأدابها على نحو ما يختلف به الرجال .

هذا الاختلاف الذى يعرض فى حياة النساء الأدبية ينشأ غالبا من اختلاف العادات .

أول شيء يطلبه الرجال عندنا من المرأة هو أن تكون عفيفة ، ولهم الحق فى أن يطلبوا منها أن تكون متحلية بهذه الفضيلة . ولكنهم بذلوا ما فى وسعهم لمحو هذه الفضيلة ، وجعلها من المستحيلات ، وذلك لأن نظام المعيشة عندنا يبعث فى المرأة شدة الميل إلى الشهوات ، فإن سجن المرأة والتضييق عليها فى وسائل الرياضة يعرضانها دائما لضعف الأعصاب ، ومتى ضعفت الأعصاب اختل التوازن فى القوى الأدبية . هذه حقيقة يلزم أن يعترف بها كل إنسان ، فإن من الحقائق الثابتة ان الجسم إذا كان قويا وكان القلب يرسل الدم إلى جميع خلايا الجسم تشعر نفس الإنسان بقوتها ، فكما لا تنهزم عند ملاقاة المصاعب والمتاعب المادية فهى لا تضعف عن مقاومة الأهواء والنزعات الرديئة ، ومن المشاهد أن التعب الشديد والمرض المضعف يعقبهما فتور فى الجسم وانحلال فى القوى يؤثران فى الإرادة وفى العزيمة . فكما إذا حاول الجسم نهوضا لا يكاد يستطيعه فيسترسل مع الميل إلى الراحة كذلك تشعر النفس بعجزها عن ضبط أهوائها ومقاومة كل ميل تقتضى مدافعته جهدا ومشقة .

لا شك أن قوة البنية وسلامة الأعصاب هما من أهم أعوان الإنسان على ضبط نفسه ، وان ضعف البنية واعتلال الأعصاب هما من أهم الأسباب التى تجعل الإنسان آلة تلعب بها الشهوات والأهواء .

فإن كانت حاجة إلى الاستشهاد برأى بعض العلماء على ما نقول فإنى أنقل ما قاله رجل أجاد درس علم التربية وهو الدكتور فلورى .

قال فى كتابه المسمى [جسم وروح الولد] : « ان آلة العقل هى المخ ، فكل انحراف يعرض فى الصحة البدنية يؤثر فيه ، فإذا

استوفينا شروط صحة الجسم أمكننا أن نحصل سلامة الإرادة وقوة الحكم ونحسن فى أخلاق المرء وآدابه » .

فالنساء المسجونات يحسبن قبل كل شىء نساء مريضات ، ولهذا فهن أشد تعرضا لمطاوعة شهواتهن من النساء اللواتى يتمتعن بحريتهن ! .

فإذا اقترن الحجاب بالبطالة ، ولا يمكن انفكاك الحجاب عنها . تبعهما قتل كل فضيلة فى نفس المرأة .

هذا التلازم بين الحجاب والبطالة لا يروق لبعضنا التصريح بوجوده ، وربما يعجبهم ان يقال ان نساءنا المحجبات عندهن واجبات عديدة تشغل أوقاتهن ، وان منحهن الحرية المطلوبة قد يكون سببا في تحويل عنايتهن عن هذه الواجبات وتوجيهها إلى أمور لا يعود منها نفع على المرأة ولا على بيتها . ولكن نحن لا يهمنا إلا تقرير الحقيقة كما هى ، نحن نقول إن وجود الواجبات شىء والقيام بها شىء آخر وان نساءنا اللاتى لا عمل لهن ولا شأن لهن خارج المنزل لا يجدن من الوقت ما يسع القيام بواجباتهن لإزواجهن وأولادهن ، وانهن تركن شئون الحياة البيتية إلى غيرهن . بخلاف النساء الغربيات اللاتى اتسعت دائرة أعمالهن حتى كادت تساوى دائرة اشغال الرجال . فإنهن يجدن مع ذلك الوقت الكافى لتأدية جميع واجباتهن المنزلية وما سبب ذلك إلا أن العمل يدعو إلى العمل والراحة تدعو إلى الراحة .

ثم إن الطريقة التى يربى بها الأطفال فى البيوت لها مدخل عظيم فى انحطاط الآداب ايضا .

يمكننى أن أجاهر هنا . بلا تردد . ان صبيا من أولادنا ، ذكرا كان أو أنثى . لا يزيد عمره عن عشر سنوات قد يحشد إلى ذهنه من الألفاظ والصور المحركة للشهوة ، وينمو فى قلبه من الميل مع ما تدعو إليه غريزة التناسل ، ويبلغ من ذلك ما لا يبلغه شاب

او شابة فى سن الخامسة عشرة او الثامنة عشرة من أبناء البلاد الأوربية .

وليس لاختلاف الاقليم دخل فى ذلك ، وإن كان له أثر فهو أثر ضعيف ، وإنما الأثر الحقيقى هو لطريقة تربية الأطفال .

لو كان الرجال الأذكياء والمتعلمون منا يلاحظون ما يقع ويقال امامهم كل يوم ، لو كانوا يفتكرون فى ما يعرض على أعينهم و آذانهم في الطرق والمجتمعات فى كل آن لاتفقنا جميعا فى هذه المسألة وغيرها من المسائل الأخرى التى لا سبب لاختلاف الرأى فيها إلا اهتمام بعضنا بالانتصار على بعض وعدم اهتمام احد منا بأن يفهم ما يقول الآخر .

لو أمكننا أن نفصل جميع المؤثرات المادية والأدبية التى تتكون منها إحساسات الطفل وأمياله لرأى القارىء بنفسه أن البنت التى تربى فى عائلة مصرية لا يمكن أن تنمو فيها خلال الفضائل . ويكفينا أن نذكر هنا أمثالا من هذه المؤثرات التى تقع فى العائلات المتوسطة التى هى أحسن الطبقات أدبا .

ومنها أن أقارب الأطفال لا يتحاشون غالبا عن تسمية كل شىء باسمه الحقيقى ويذكرون الوسـ[illegible] التى تجرى بين الزوج وزوجته امامهم بدون أن يخطر على بالهم أن يأمرهم بالخروج فى مثل هذا الوقت إلى مكان آخر ، وأيضا أول شىء يأتى على لسان الزائر إذا صادف بنتا صغيرة فى بيت هو أن يسألها إذا كانت تريد أن تتزوجه أو تتزوج بابنه الصغير ، وإذا كانوا عدة زائرين سألها كل واحد عمن أعجبها من بينهم !

ومنها حضور الأطفال فى حفلات الأفراح ، ومشاهدتهم رقص الباغيات ، وسماعهم الأغانى التى تدور كلها على الحب الشهوانى .

بمثل هذه المناظر وبمثل تلك العبارات تتنبه البنت الصغيرة إلى ما كان يجب أن تغفل عنه وينبت فيها الميل الشهوانى .

ثم إذا عرض آن بنتا عانقت صبيا فى أثناء اللعب يوجه اللوم عليها من أهلها ، ويقال لها انها أتت أمرا فاضحا ، فإذا سألت البنت : أى عيب فى ما فعلت ؟ أجابها المسئول بما يعن له وما تسمح له به تربيته ، وكلما تقدمت الصبية فى السن زاد الحجر عليها وإبعادها عن مخالطة الرجال ، وفى هذا من استلفات ذهنها إلى ما بين الصنفين من الاختلاف ما يضطرها إلى البحث فى هذا الأمر الذى يشغلها ويشغل أهلها إلى هذا الحد ، فتسأل عنه من تثق به من زميلاتها ، فتتعلم منهن بعضه ، وتشتعل مخيلتها بفهم الباقى .

فهذه المعيشة التى تمر على البنت ، وأهم ما فيها عندها الرجل وأحواله ونسبها إليه وعلاقاتها به وبعدها عنه وقربها منه ، هى بلا ريب أعظم مؤثر فى مزاجها ، لأنها تجعل للوظائف التناسلية الشأن الأول فى حياتها .

ولتأكد الرجال من صحة ما ذكرنا ، وشعورهم بأن النساء لا هم لهن ولا شاغل لعقولهن إلا شأنهن مع الرجال ، لا ترى رجلا بين المصريين يأتمن زوجته ويرضى بمعاملتها لرجل أجنبى عنها ، وفى بعض البيوت لا يأتمن الرجل شقيقه ولا يسمح لامرأته أن تكلمه وتكشف وجهها عليه ولو كان حاضرا معهما ، وكذلك فى كثير من العائلات لا يختلط الرجل بشقيقة زوجته .

وليس من رأيى أن أعيب الرجال والنساء على سوء ظن بعضهم ببعض إلى هذا الحد لأن عوائدنا وأخلاقنا وتربيتنا الحالية قضت عليهم بألا يثق بعضهم ببعض ، وجعلت الحجاب الوسيلة الوحيدة لصيانة النساء ، ولم تجعل من الدين ولا من المروءة ولا من كرم الخلق ولا من حسن الأدب أدنى وسيلة لصيانة العفة والتنزه عن الفحش .

ولكن ليسمح لى القارىء أن آتى على بقية فكرى فأقول :

بقى الحجاب إلى الآن مستمرا للأسباب التى بيناها ، أى لأنه كان تابعا لهيئتنا الاجتماعية الماضية ، من الجهة السياسية والعقلية والأدبية ، كنا محكومين بالاستبداد فظننا أن السلطة العائلية لا تؤسس إلا على الاستبداد ، فسجنا نساءنا وسلبناهن حريتهن ، وملكنا وحدنا حق رفع قيد الزواج ، واستعملنا فى تربية أولادنا الأمر والنهى والإخافة والضرب ، وكنا جهالا فتخيلنا أن المرأة لا وظيفة لها ولا عمل لها إلا أن تكون موضعا لشهوة الرجل وواسطة من وسائط مسرته ، وفاتنا أنها هى أيضا إنسان مثلنا ، وأن لها الحق فى أن تسعى إلى طلب سعادتها بالوسائل التى وضعها الشارع تحت تصرف الرجال لطلب سعادتهم ، فلما أسقطنا منزلة المرأة بغير حق انتقم الحق منا وشدد انتقامه ، فحرمنا كذلك من السعادة الحقيقية وانحطت أخلاقنا وفسدت تربية أولادنا ، واستولى الحزن واليأس على قلوبنا حتى ظن الكثير منا أن حياة الأمم الإسلامية اقتربت من نهايتها ولم يبق لها فى التزاحم العام نصيب من النجاح ، وأخذوا يتباهون بالمدنية الإسلامية القديمة كلما تحدث الأوروبيون بعلومهم وفنونهم ، ويفتخرون بالتمدن العربى فى الأعصر الماضية كلما ذكر التمدن الغربى الحديث ، كما تسلى نفسها عجوز وصلت إلى سن الشيخوخة بتذكار جمالها مدة صباها .

لكنا اليوم قد تغيرت حالتنا الاجتماعية تغييرا كليا ، فأصبحنا أحرارا ونحب الحرية ، وبدأ التعليم الصحيح فى أن ينتشر بين أفراد أمتنا ، وتهيأت عقولنا إلى إدراك منزلة الإنسان فى الوجود ومرتبة المرأة فى البيت وشأنها فى العالم ، فهل يليق بنا بعد هذا أن نحافظ على العادات والتقاليد القديمة ، ونحرص على عادة الحجاب ونتخذها وحدها وسيلة لصيانة المرأة ، أو يكون من الأليق بنا أن نبحث عن وسيلة أخرى تكون موافقة لحالتنا الجديدة التى انتقلنا إليها ويكون من شأنها أن ترتقى بنا إلى ما هو خير منها ؟

وبعبارة أخرى : يوجد مذهبان أحدهما : ينصح الناس بالتمسك بالحجاب .

والثانى : يشير عليهم بإبطاله ، فأى هذين المذهبين يجب أن نختاره ؟ وما هو رائدنا فى الإختيار حتى لا نقع فى عاقبة الخطأ ؟ .

أما الحجاب فضرره أنه يحرم المرأة من حريتها الفطرية ، ويمنعها من استكمال تربيتها ويعوقها عن كسب معاشها عند الضرورة ، ويحرم الزوجين من لذة الحياة العقلية والأدبية ولا يأتى معه وجود أمهات قادرات على تربية أولادهن ، وبه تكون الأمة كإنسان أصيب بالشلل فى أحد شقيه .

ومزاياه تنحصر فى أمر واحد هو أنه يقلل الزنا ، حيث يحول بين الصنفين ، ويمنع الاختلاط بينهما فى الظاهر ، وإن لم ينزع الميل إليه من النفوس ، فيكون ما يسمونه عفة على حد ما قيل :

« ان من العصمة ألا تجد » فالأجساد فى صيانه ، وأغلب القلوب فى خيانة ! .

وأما الحرية فمزاياها هى إزالة جميع المضار التى تنشأ عن الحجاب ، وسبق ذكرها وضررها الوحيد أنها فى مبدئها تؤدى إلى سوء الاستعمال ، ولكن مع مرور الزمن تستعد المرأة إلى أن تعرف مسئوليتها وتتحمل تبعة أعمالها وتتعود على الاعتماد على نفسها والمدافعة عن شرفها حتى تتربى فيها فضيلة العفة الحقيقية ، التى هى ترفع النفس المختارة الحرة عن القبيح ، لا خوفا من عقاب ولا طمعا فى مكافأة ولا وجود حائل ليس فى الإمكان إزالته بل لأنه قبيح فى نفسه .

وليس من الممكن أن تصل المرأة إلى هذه المنزلة الأدبية مادامت فى الحجاب ، ولكن من السهل جدا أن تصل إليها بالحرية .

تصل إليها كما وصلت إليها غيرها من النساء الغربيات ، فإنا نرى أنه كلما زيد فى حرية المرأة الغربية زاد عندها الشعور بالاحترام لنفسها ولزوجها ولعائلتها .

قال الهامة « ماتنجازا » :

« أعظم شيء يؤثر فى أخلاق البنات الحرية التى تعطى إليهن من عهد طفولتهن » .

وقال :

« إن الفضائل الجليلة التى تشاهد عند النساء اللاتى يتمتعن بحريتهن لا يصح أن تنسب إلى الاقليم ، لأنى وجدت هذه الفضائل فى « بيونس ـ آيرس » التى تشتد فيها الحرارة ويصفو فيها أديم السماء وتنمو فيها الثرثرة العمومية ، ولو كان لطبيعة الاقليم مثل هذا الأثر فى الأخلاق لفسدت أخلاق النساء فى تلك البلاد . كانت البنات عندنا فى القرن الماضى وفى مبدأ هذا القرن لا تخرج من الاديرة إلا عند الزواج ، وكن جاهلات بكل ما يتعلق بالحب فكن يتلقين دروس الحب من غير الزواج فى أغلب الأحيان ، ذلك لأن من القواعد العامة أن البنت التى لا تختار زوجها بل تكلف بقبوله تكون قد قطعت نصف المسافة التى توصلها إلى الخطيئة ، فلا شيء يقى البنت من الفساد مثل اختيارها زوجها بنفسها بعد أن تعرفه وتقارن بينه وبين غيره من الرجال » .

وقال فى وصف نساء وطنه : « إن المرأة الطليانية أقل من غيرها عفة لأنها تتزوج غالبا من غير أن تحب زوجها . وكذلك الحال تقريبا فى نساء فرنسا » .

أما النساء الانكليزيات والأميريكانيات والألمانيات فأثنى على كمال عفتهن ، ونسبها إلى طرق تربيتهن وتمتعهن بالحرية والاستقلال فى أعمال الحياة .

فالحجاب والحرية وسيلتان لصيانة المرأة . ولكن ما أعظم الفرق بينهما فى النتائج التى تترتب عليهما ! حيث أن الوسيلة الأولى تضع المرأة فى وصف الأدوات والأمتعة ، وتجنى على الإنسانية . والثانية تخدم الإنسانية . وتسوق المرأة فى طريق التقدم العقلى والكمال الأدبى .

فقد رأيت مما ذكرناه أن ما اخترناه فى تربية المرأة ووقاية عفتها ليس مبنيا على أمر نظرى لا يستند إلى واقع بل هو مؤسس على المشاهدة والتجربة .

وصل احترام الرجل الغربى لحرية المرأة إلى حد أن الأب يخجل على نفسه فتح الخطابات التى ترد لبنته ، وكذلك الزوج رأى الأجدر به ألا يفتح الخطاب الذى يرد إلى امرأته . وهذه المسألة الأخيرة كانت موضوع بحث مهم بين أعضاء جمعية المحامين الفرنساويين من منذ عشر سنين تقريبا ، وتقرر فيها أن سلطة الزوج لا تتيح له أن يطلع على أسرار زوجته لأن هذا العمل يعد تجسسا مهينا لحرية المرأة وشرفها .

نعم ، إن أغلب الزوجات يطلعن أزواجهن على ما يرد إليهن من الخطابات ، كما أن أغلب الأزواج يعرضون المراسلات التى ترد إليهم على زوجاتهم ، ولكن يوجد فرق عظيم بين ما يحصل بالرضا وما يعد واجبا بمقتضى حق يدعى .

بلغ من أمر احترام الرجل الغربى لحرية المرأة أن بنات فى سن العشرين يتركن عائلاتهن ويسافرن من أمريكا إلى أبعد مكان فى الأرض . وحدهن أو مع خادمة ، ويقضين الشهور والأعوام متغيبات فى السياحة ، متنقلات من بلد إلى أخرى . ولم يخطر على بال أحد من أقاربهن أن وحدتهن تعرضهن إلى خطر ما .

كان من حرية المرأة الغربية أن يكون لها أصحاب غير أصحاب الزوج ، ورأى غير رأى الزوج ، وأن تنتمى لحزب غير الحزب الذى ينتمى إليه الزوج ، والرجل فى كل ذلك يرى أن زوجته لها الحق فى أن تميل إلى ما يوافق ذوقها وعقلها وإحساسها ، وأن تعيش بالطريقة التى تراها مستحسنة فى نظرها .

ومع كل ذلك ترى نظام بيوت الغربيين قائما على قواعد متينة ! ونرى هؤلاء الأمم فى نمو مستمر ! ولم يحل بهم شيء من المصائب التى يهددنا بها أولئك الكتاب والفقهاء من قومنا الذين أطالوا الكلام فى شرح المضار التى تنتج عن إطلاق الحرية للنساء ! فكثيرا ما سمعنا منهم أن اختلاط الرجال بالنساء يؤدى إلى اختلاط الأنساب . وأنه متى اختلطت الأنساب وقعت الأمة فى هلاك .

فهذه ممالك أوروبا جميعها نسلؤها ورجالها مختلطون ، فى كل أطوار الحياة وفى كل آن . وها هم إخواننا وأبناء وطننا المسيحيون واليهود الذين تركوا عادة الحجاب من عهد قريب وربوا نساءهم على كشف وجوههن ، ومعاملة الرجال ، فأين هم من الاختلال والهلاك ؟ ! .

لنترك هذه النظريات الخيالية التى لا قيمة لها أمام الوقائع :

دلت التجربة على أن الحرية هى منبع الخير للإنسان . وأصل ترقيه ، وأساس كماله الأدبى ، وأن استقلال إرادة الإنسان أهم عامل أدبى فى نهوض الرجال ، فلا يمكن أن يكون لها إلاّ مثل ذلك الأثر فى نفوس النساء .

غاية الأمر أن كل تغيير يعرض على الأنظار فى صورة مشروع يلتمس قبوله ولم يكن بدأ الناس فيه من قبل هو فى الحقيقة فكر سبق أوانه وقت عرضه ، ولهذا لايفهمه ولا يقدره حق قدره إلا العدد القليل ممن يمتد نظرهم إلى ما يكنه المستقبل من الحوادث .

أنظر إلى حالة مصر : عاشت الأمة المصرية أجيالا فى الاستعباد السياسى . فكانت النتيجة انحطاطا عاما فى جميع مظاهر حياتها . انحطاط فى العقول ، وانحطاط فى الأخلاق . وانحطاط فى الأعمال ، ومازالت تهبط من درجة إلى أسفل منها حتى انتهى بها الحال إلى أن تكون جسما ضعيفا عليلا ساكنا يعيش عيشة النبات أكثر من عيشة الحيوان فلما تخلصت من الاستعباد رأت نفسها فى أول الأمر فى حيرة لا تدرى معها ما تصنع بحريتها الجديدة .

وكان الكل لا يفهم لهذه الكلمة معنى . ولا يقدر لها قيمة ، وكان الناس يستخفون ويهزأون بالحرية ، بل ويتألمون منها ، وينسبون إليها اختلال عيشتهم وعلل نفوسهم ، فكم من مرة سمعنا بأذننا أن سبب شقاء مصر هو تمتعها بالحرية والمساواة ! . ثم اعتاد القوم شيئا فشيئا على الحرية ، وبدأوا يشعرون بأن اختلال عيشتهم لا يمكن أن يكون ناتجا عنها ، بل له أسباب أخرى . وتعلق بنفوس الكثير منا حب الحرية حتى صاروا لا يفهمون للوجود معنى بدونها ، ولنا الأمل فى أولادنا الذين يشبون على الحرية التامة ، يجنون جميع ثمراتها النفسية التى من أهمها تهيئة نفوسهم للعمل ، عند ذلك يعرفون جيدا أن الحرية هى أساس كل عمران .

وهكذا يكون الحال بالنسبة لحرية النساء :

أول جيل تظهر فيه حرية المرأة تكثر الشكوى منها ، ويظن الناس أن بلاء عظيما قد حل بهم ، لأن المرأة تكون فى دور التمرين على الحرية . ثم مع مرور الزمن تتعود المرأة على استعمال حريتها وتشعر بواجباتها شيئا فشيئا وترتقى ملكاتها العقلية والأدبية ، وكلما ظهر عيب فى أخلاقها يدوى بالتربية حتى تصير إنسانا شاعرا بنفسه .

ذلك لأن النمو الأدبى ، لا يختلف فى سيره عن النمو المادى ، فكما أن الطفل يحبو قبل أن يمشى ، ويتعلم المشى بالتدريج ،

فيمسك الحائط ويستند على يد مرضعته . ثم متى تعلم المشى وحده لا يحسنه إلا بعد تمرين يدوم مدة أشهر يقع فى خلالها مرات كثيرة . كذلك الإنسانية فى سيرها الأدبى لا تنتقل من حال إلى حال أحسن منها إلا بالتدريج وبعد تمرين طويل يعرض لها فيه كثير من التخبط والاختلال والتجارب المؤلمة حتى تستقيم فى سيرها .

تلك سنة الفطرة . فلا يجوز لنا أن نتخيل أن فى إمكاننا الخلاص منها ولا الفرار من قيودها . كذلك لا يكون من الحكمة أن نرجع إلى الوراء أو نوقف تقدمنا إلى الأمام .

فإن أردنا أن نصل إلى الغاية التى وجهنا إليها آمالنا فما علينا إلا أن نستسلم إلى حكم السنة الإلهية . ونقبل المتاعب والمشاق التى بدونها لا يمكن الوصول إليها ، وإلا كان مثلنا كمثل أب مجنون خاف على ولده إذا مشى أن يسقط على الأرض فمنعه المشى حتى كبر فعاش مقعدا مشلول الرجلين .





الواجب على المرأة لنفسها

أول ما يستوقف نظر الشرقى الذى يحل فى مدينة من مدن أوروبا هو المركز المهم الذى تشغله المرأة فيها ، ويظهر له من أول وهلة أن التقسيم المصطلح عليه فى بلادنا بين العيشة الداخلية والعيشة الخارجية . هذا التقسيم الذى يحول بين اشتراك الصنفين فى جميع أطوار الحياة ومظاهرها ، ليس من القواعد المعترف بصحتها فى تلك البلاد .

فإذا ترك أوروبا وجال فى أرض أمريكا شخص بصره مندهشا من المنظر العجيب الذى يراه ، واستولى الاستغراب على عقله إلى درجة الاضطراب . فيجد أن تقسيمه الغريب قد اضمحل حتى كاد يكون معدوما . ويرى النساء يشتغلن بأشغال الرجال ، والرجال يعملن أعمال النساء بلا فرق ، ويسمع أهل أمريكا يتهمون سكان أوروبا بأنهم سكان ظالمون نساءهم مجحفون بحقوقهم كما يرمى الأوروبيون رجال الشرق باستعمال الاستبداد مع نسائهم '

هذا المنظر يراه الشرقى ويستغربه فى أول الأمر ثم ينساه . ولا يفكر فيه بعد ذلك . فيعيش بجانب الغربيين وهو لا يعرف شيئا من أحوالهم ، وإن أتى ذكرها عفوا فى بعض الجرائد أو الكتب فلا يحرك ذلك فى نفسه أدنى شوق للوقوف على معرفة حقيقتها واستطلاع ما خفى منها .

ذلك لأنه وقر فى نفسه أن عاداته هى أحسن العادات ، وأن كل ما خالفها ليس جديرا بالتفاته واهتمامه .

لكن طالب الحقيقة الذى تعود على طريقة الانتقاد العلمى لا يحكم فى الحوادث الاجتماعية على هذا الضرب من التساهل .

فإن رأى يوما فى إحدى الجرائد أن « الست غوردون » ترافعت أمام محكمة فرانسسكو الجنائية ودافعت عن رجل متهم بالقتل . ثم رأى يوما آخر فى مجلة أن الست « كارى رينار » إحدى قسيسات

الولايات المتحدة خطبت فى الكنيسة فى مدينة لوروا على ملأ عظيم من الرجال والنساء . ثم رأى مرة أخرى أن الست « ستون » تدرس الاقتصاد السياسى فى كلية شيكاغو لطلبة العلم ذكورا وإناثا . ثم علم أن لتلك المحامية زميلات يشتغلن أمام جميع المحاكم . ولتلك القسيسة زميلات فى كثير من الكنائس . ولتلك الأستاذة زميلات فى أغلب المدارس ، وأن تلك النسوة قائمات بأعمالهن على طريقة لا تزيد ولا تنقص فى الإتقان عما يقوم به الرجال فى أعمالهم فماذا يعتقد حينئذ ؟ يعتقد أن قول الشاعر :

كتب الحرب والقتال علينا وعلى الغانيات جر الذيول

هو قول لا ينطبق على الحقيقة فى شىء ، فلا يصح الاستناد عليه فى الرد علينا . ونحن نعذر الشاعر الذى لم يفعل سوى حكاية حال النساء التى وجدهن عليها فى عصره . ولكن هل يمكن أن نعذر أنفسنا فى اعتقادنا أن النساء لا يصلحن إلا لجر الذيول ، مع أن نظرة واحدة فى الأعمال النفسية التى يأتى بها النساء فى الغرب تكفى فى العلم بأن حياة المرأة تصلح أن تكون مملوءة بشىء أفضل من اللهو واللعب وجر الذيول ؟ ! .

هذه الصورة التى شخص بها الشاعر صورة المرأة ليست صورة المرأة الحقيقية لأنها ليست صورة إنسان ، بل ولا حيوان ! . إذ ليس فى الوجود حى إلا وله وظيفة يؤديها وعمل يشتغل به ، ولا يوجد بين أنواع الحيوانات - من أفضلها إلى أدناها - فرد إلا وهو خاضع لقانون التزاحم فى الحياة .

إذا أردنا أن نرتب أعمال الإنسان بحسب أهميتها نجد أنها تنقسم إلى ثلاثة أنواع :

أولها : الأعمال التى يحفظ المرء بها حياته .

وثانيها : الأعمال التى تفيد عائلته .

وثالثها : الأعمال التي تفيد الوجود الاجتماعي

ومن البديهي أن كل تربية صحيحة يجب أن تمكن الإنسان من القيام بهذه الأعمال وأن تراعي هذا الترتيب الطبيعي . فالمعارف التي تضمن سلامة الحياة والقيام بالضروريات والحاجات اللازمة لها هي أهم من غيرها ، فيلزم أن تفضل على المعارف التي تختص بالواجبات العائلية ، لأنه لا يمكن القيام بأي واجب عائلي إلا بعد قضاء الواجبات الأولى . كذلك المعارف التي ترشد الإنسان إلى معرفة واجباته العائلية هي مقدمة على المعارف التي تختص بالواجبات الاجتماعية . لأن قوة الهيئة الاجتماعية متوقفة على حسن نظام البيوت .

إذا تقرر ذلك نقول : إن التربية التي تشمل هذه الأنواع الثلاثة ، على الترتيب الذي وضعناه . هي لازمة للرجال والنساء على حد سواء .

ولكن ، دعنا الآن من المزايا والحقوق السياسية . فإني ما طلبت المساواة بين الرجل والمرأة في شيء منها . لا لأني أعتقد أن الحجر على المرأة أن تتناول الأشغال العمومية - حجرا عاما مؤبدا - هو مبدأ لازم للنظام الاجتماعي ، بل لأني أرى أننا لا نزال الآن في احتياج كبير لرجال يحسنون القيام بالأعمال العمومية . وأن المرأة المصرية ليست مستعدة اليوم لشيء مطلقا . ويلزمها أن تقضي أعواما في تربية عقلها بالعلم والتجارب حتى تتهيأ إلى مسابقة الرجال في ميدان الحياة العمومية .

لهذا نترك الكلام على الأعمال والمعارف التي تتعلق بالنوع الثالث ونقتصر في الكلام هنا على الأعمال والمعارف التي تختص بالنوعين الأولين .

مهما اختلف الناس في فهم طبيعة المرأة لا يجوز أن يدعي أحد أنها يمكنها أن تستغني عن الأعمال التي تحافظ بها على قواها

الحيوية وتعدها للقيام بحاجات وضرورات الحياة الإنسانية.

كذلك مهما اختلفنا في تحديد وظيفة المرأة في العالم لابد أن نعترف أنها لا يمكنها أن تتخلى عن الأعمال والمعارف التي تتعلق بواجباتها العائلية .

إذن فكل تعليم يتعلق بهذين النوعين من الأعمال يكون نافعا . وكل تربية تؤهل المرأة إلى المدافعة عن نفسها وتحسين حال بيتها هو أيضا نافع .

يظن الكثير منا أن المرأة في غنى عن أن تتعلم وتعمل . ويزعمون أن رقة مزاج النساء ونعومة بشرتهن وضعف بنيتهن يصعب معه أن يتحملن متاعب الكد وشقاء العمل .

ولكن هذا الكلام هو في الحقيقة تدليس على النساء ، وإن كان ظاهره الرأفة عليهن .

والناظر في أحوال هيئتنا الاجتماعية يرى من الوقائع المحزنة ما يجعله على بينة من ذلك . يرى أن الرجل والمرأة هما خصمان لا يتفقان إلا في لحظات قليلة . وأنهما يتحاربان أناء الليل وأطراف النهار ، يريد الرجل أن ينتهز ضعف المرأة وجهلها ليجردها عن كل ما تملكه ويستأثر وحده بالمنافع . وتجتهد المرأة على قدر إمكانها في الدفاع عن نفسها ، ولا تجد إلى ذلك سبيلا

ولو جمعت الوقائع القضائية بين الصنفين في كتاب لكانت أحسن ما يمكن أن يكتب للدفاع عن حقوق المرأة .

لا أظن أني مبالغ إن قلت أنه متى اختلطت مصلحة الرجل بمصلحة المرأة ، لأي سبب من الأسباب سواء كان لزواج وقع بينهما أو لاشتراك في ملك آل إليهما أو لتعهد ارتبطا به ، فأول ما يسبق إليه فكر الرجل هو أن يسلب من المرأة ما يستطيع من حقها ، والمسكينة غافلة عن الأخطار التي تحدق بها ، وإن اكتشفتها

فلا يكون في الغالب إلا بعد خرابها وعلى أى حال متى وقعت فى الشرك لم يبق لها من حيلة إلا البكاء والعويل لأنها ترى نفسها فى حيرة وارتباك لا تدرى معهما ماذا تصنع للخلاص .

وكل المصريين يعلمون أن النساء في الوجه القبلى بعامة كن محرومات من حقوقهن فى التركات التى يرثن فيها بمقتضى أحكام الشريعة . وأن هذه الحال بقيت مستمرة إلى أن دخل نظام المحاكم الأهلية في الصعيد . حتى أن بعض المديرين الذين أخذ رأيهم فى تشكيل المحاكم الجديدة فى الوجه القبلى كانوا يعدون من موانع تشكيلها أنها لو شكلت يكون من أحكامها أن يعطى النساء حقوقهن فى التركات ، وأن فى هذا تغييرا كبيرا للعادات المتبعة فى تلك البلاد ! .

وليس فى هضم حقوق النساء شيء من الغرابة ولا هو مما يوجب الدهشة لأحد

نحن نفهم أن رجلا يعيش فى عالم الخيال يكتب فى مكتبه على ورقة أن ليس على النساء إلا أن يقرن فى بيوتهن خاليات البال تحت كفالة وحماية الرجال . نفهم ذلك لأن الورق يتحمل كل شيء ! .

وليس من الصعب وضع نظريات خيالية على هذه الطريقة . إذ يكفى فى ذلك تركيب بعض جمل مسبوكة فى قالب لطيف ليقيم الكاتب نفسه مشروعا حكيما . ويحكم على القوانين والعادات والأخلاق .

وإنما يجد الصعوبة رجل اعتاد على أن يحل النظريات ويختبرها بقياسها إلى الواقع . فإنه إذا أراد مثلا أن يحصل لنفسه رأيا فى ما هى حقوق النساء التى نحن بصددها يجب عليه أولا : أن يسوق نظره إلى الوقائع التى تمر أمامه ، أعنى أن يطبق نظريته على الواقع ويتصورها فى ذهنه منفذة ومعمولا بها فى قرية ثم فى مدينة ثم فى إقليم ، وتتمثل أمامه النساء فى جميع أعمارهن وأحوالهن

وطبقاتهن ، فيراهن بنات ومتزوجات ومطلقات وأرامل ويراهن فى المدرسة وفى البيت وفى الغيط وفى الدكان وفى الأماكن الصناعية ويقف على سلوكهن مع أزواجهن وأولادهن وأقاربهن والأجانب ، ثم يعرف البلاد التى للنساء فيها شأن غير ما لنسائنا فى بلادنا ، وكيف انهن يستعملن حقوقهن والنتائج التى ترتبت على هذا الاستعمال ، ويقف على حالة المرأة فى الأزمان الخالية والتقلبات التى طرأت عليها .

ذلك عمل ليس بالسهل ، لأنه يحتاج إلى معلومات جمة ومشاهدات كثيرة .

فإذا توفر له ذلك كله ، لم يتيسر له أن يحكم فى المسألة حكما قاطعا ، لأنه يعلم أن رأيه قائم على مقدمات ظنية . فلا تكون نتائجها إلا تقريبية ، لذلك تراه دائما على طريق البحث لا يركن إلى ما وصل إليه جهده إلا ليضعه قاعدة لعمل مؤقت . ولا يأنف من تعديل رأيه بحسب ما يقتضيه الحال ويظهره العمل .

والأمر بالعكس عند صاحب النظرية الخيالية . فهو يعتقد أن قضيته تشبه قضية حسابية فهى لاتخطىء أبدا ، مع انها مؤلفة مع معان عامة مهمة لايستقر الذهن فيها على شىء محدود ـ مثل ضعف المرأة وقوة الرجل وتقسيم المعيشة الى داخلية وخارجية وهكذا ـ هذه المعانى تملأ عقله ، ولكونها مجردة عن الوقائع والمشاهدات فهى فى الحقيقة ألفاظ يكون عنها قاعدة عامة صالحة لكل زمان ومكان .

فهو لاينظر إلى الأشخاص الحقيقيين ، ولا يرى نفسه محتاجا إلى أن ينظر إليهم ولا أن يبحث فى أحوالهم . ولا يخطر بباله أن للمادة الإنسانية صورة غير الشكل الخيالى الذى ملك عقله ، لذلك لايهمه بأن يرى تلك المادة فى صورة امرأة راعية أو زارعة أو صانعة أو تاجرة ولا أن يبحث إن كانت غنية أو فقيرة ، عائشة وحدها أو فى عائلة ، ساكنة فى المدن أو القرى أو البادية .

هذه الصور العديدة المختلفة لاتنفذ إلى مداركه ، ولا تقر فيها ، لأن جميع نوافذها قد سدت بحسم النظرية التى احتلت عقله من أوله إلى آخره حتى لم يبق فيه مكان لشيء آخر .

فهو ان كتب أو تكلم لايكتب ولا يتكلم عن امرأة حية ذات لحم ودم واحساس ووجدان ، وإنما يكتب ويتكلم عن المرأة التى فى ذهنه .

وهى امرأة شابة سنها بين العشرين والثلاثين ، جميلة المنظر رقيقة الطبع ، شهوية المزاج تكفى إشارة منها لكى تنال ما تشتهيه نفسها ، لأنها ذات ثروة عظيمة ، أو لأن لها بعلا وافر الثروة ولايبخل عليها بشيء ، أما أخلاقها فانحطاط النفس والميل إلى الكذب والاحتيال والتطلع إلى أعمال السوء . لايحول بينها وبين ذلك إلا الحكم عليها بملازمة البيت والاحتجاب عن الرجال

ولا نرى فى تمثيل المرأة فى أذهاننا بهذا إلا توارثنا آراء العرب فيها . ذلك أن حياة العرب كانت حياة حرب وقتال ، وأرزاقهم كانت من الغنائم ، وغنى عن البيان أن أمة معاشها متوقف على القتال لا يمكن أن يكون فيها للمرأة شأن كبير ، إذ المرأة فى هذه المعيشة لاتستطيع أن تجارى الرجل ، ولذلك نزلت درجتها عندهم وسقطت منزلتها بينهم ، حتى حسبت من المتاع وأدوات الزينة . وتناولها السلب وعدت من الغنائم كما عد غيرها من الأموال .

....

ومن هذا نتج التسرى وتعدد الزوجات .

وكما ان المرأة لم يكن لها عمل عند الأمة العربية . لانحصار المعيشة كلها فى الغزو والدفاع عن القبيل كذلك لم يكن لها عمل فى العائلة ، لأن التربية عندهم كانت قاصرة على تغذية جسم الطفل بالرضاعة والأكل حتى ينشأ رجلا مقاتلا ، لا عالما فاضلا .

فلا عجب إذا رأينا فى كلام العرب وشعرهم وقصصهم ، بل وفى

مؤلفات فقهائهم وعلمائهم وفلاسفتهم ، ما يدل على احتقارهم للمرأة .

هذا هو منشأ تولد صورة المرأة فى عقول المسلمين ، وهى صورة حقيقية إذا نظر إلى الماضى ، ولكنها مزورة إذا نظر إلى الحال والمستقبل ، ذلك لأن المرأة المصرية اليوم لا تشابه المرأة العربية التى كانت تعيش من آلاف السنين ، لا فى الظاهر ولا فى الباطن ، وتختلف عنها فى الملبس والمأكل والمسكن وفى العادات والأخلاق والحاجات والضرورات ، لأن الحاجة الاجتماعية والاقتصادية التى هى موجودة فيها الآن تغيرت تغييرا كليا عما كانت عليه فى الماضى ، وتبع هذا التغيير لوازم وحاجات كانت مجهولة عند نساء العرب .

فالمرأة العربية كانت تكتفى من طعامها بخبز من شعير ، ومن ملبسها بقميص من قطن ومن مسكنها ببيت من شعر ، وتحصيل ذلك وتدبيره لا يحتاج إلى علم واسع وحذق كبير . والمرأة العربية عاشت جاهلة بالشئون المعاشية ، والمرأة العربية كانت مستعبدة لأنها كانت فى الحقيقة متاعا يدخل فى حوزة الرجل بالسلب أو بعقد هو أقرب للبيع منه إلى الزواج .

أما الآن فنحن فى عصر أمن الناس فيه بعضهم بعضا . واستقر النظام فيهم ، فلم تبق الحرب شغلا شاغلا لجميعهم ليدفع بعضهم غائلة بعض ، وأصبح الناس غير محتاجين إلى الغزو فى كسب أرزاقهم ، فبعد أن كانت قيم الرجال تغلو وترخص وتعلو وتنحط على حسب غنائهم فى القتال وحسن بلائهم فيه ، وبعد أن كان الفائق فى الشجاعة وقوة البأس هو صاحب السلطان الأعلى ، والضعفاء كلهم تحت كنفه ، انقلب الحال ، ولم يبق للقتال حاجة إلا فى أحوال مخصصة يتولاه فيها أناس معروفون ، وأقبل أفراد الأمة رجالا ونساء بعضهم على بعض يتنافسون فى أمور أخرى .

فمنهم المتنافسون فى المجد بالعلم ، ومنهم المتسابقون إليه بالثورة ، وفيهم المجدون فى طلبه بالصناعة والتجارة والزراعة . واتسع الميدان لتجادل العقول ، والمرأة إنسان مثل الرجل زينتها الفطرة بموهبة العقل فحق لها أن تسمو اليوم الى ما يقرب من درجته ، ان لم تستطع ان تساويه فيها ، ثم تبع هذه الحالة كثرة الحاجات ، وأصبح المقصر فى سعيه ، الساقط فى عزمه ، القاعد فى كسله وجهله مهددا بالموت ، محفوفا بخطر العدم ، وفتح على الناس بذلك باب جهاد جديد ، فأهل البلد الواحد يتزاحمون فى طرق الكسب ويتدافعون فى سبله بوسائل العمل وحيل العقل وجميعهم يزاحم الأجنبى الذى سهل عليه مخالطتهم بسهولة المواصلة وتوافر أسباب الأمن وما هذا الجهاد بالهين السهل ، بل هو ما يحتاج إلى إعمال القوى العقلية والبدنية أكثر مما يحتاج إليه القراع بالسيوف والمراماة بالسهام .

ولقد استدار الزمان على المرأة ورجع بها إلى قانون الفطرة ، فعرض لها من الحاجات مالا يمكن معه أن تعيش مقصورة فى بيتها ، فهى مضطرة رغما عنها أن تدخل فى ما دخل الرجال فيه وأن تعمل لتكسب وتعش وتغلو وتعلو فهى بحكم هذه الضرورة فى أشد الحاجات إلى تعلم ما يمكنها من بعض الغلبة فى هذه المزاحمة العظيمة .

وما نسمعه الآن من صياح النساء وعويلهن وشكواهن من الرجال لعدم القيام بالانفاق عليهن أو اغتيال حقوقهن ومن أحاديث تسرح الكثير منهن فى مهاوى الرذيلة لسد بعض الحاجات يؤيد ما قلنا ويظهر لكل نظر صواب ما بينا .

وإنا نسأل مجادلينا فيما نحن بصدده . هل يمكنهم أن يقولوا أن لاحاجة للمرأة تدعوها إلى معرفة وجوه الكسب وارتفاع المكانة ؟ أو يقولوا : انها فى حاجة إلى ذلك ، ولكن ـ واأسفاه ـ ليس فى

فطرتها ولافيما وهب الله لها من القوى مايهيئها لأخذ أهبتها فى هذا الجهاد ؟

هذه المسألة لا تحل ببعض كلمات مثل : كون المرأة ضعيفة أو قاصرة العقل ، لأن الضعيف والقوى وصاحب العقل الكبير وذا العقل الصغير والجاهل والعالم كلهم يستوون أمام ضرورات الحياة ، وإنما الذى يفيد فى فهم حقيقة هذه المسألة وحلها هو أن يعرف أولا هل يوجد نساء ليس لهن عائل يقوم بحاجاتهن ، أو يوجد لهن عائل لكن كسبه لايكفى لقضاء ما يحتجن إليه ؟ ثم إذا كان يوجد نساء من هذا الصنف فما عددهن ، وهل هو كثير أو قليل ؟

والذى يمكننا الرجوع إليه فى ذلك هو تعداد أهالى القطر المصرى الذى حصل فى سنة ١٨٩٧ ، وهو أخر إحصاء جرى . جاء فى هذا الاحصاء أن جملة النساء المصريات اللاتى يشتغلن بصنعة أو حرفة هو ٧٣١، ٦٣ أى أنه يوجد الآن فى مجمع المصريات اثنتان فى كل مائة امرأة يتشغلن بصنعة ، ولم يدخل فى هذا الاحصاء نساء الأرياف اللاتى يشتغلن بالزراعة ، ولا النساء الأجنبيات اللاتى بلغ عدد المحترفات منهن بصنعة عشرين فى المائة

وغنى عن البيان أن هاته المحترفات هن نساء لاعائل لهن ، لما نعهده من أن الرجال لايسمحون لزوجاتهم ولا لبناتهم أن يحترفن بصناعة مالم يكونوا أنفسهم عاجزين عن كل كسب .

وإذا رجعنا إلى مشاهداتنا نجد أن النساء اللاتى لا عائل لهن يزدن عن هذا المقدار أضعافه لأن الأغلب منهن يعيش عالة على أقاربهن ، ومنهن من يستعمل لكسب العيش وسائل لايعترف بها ، وأضيف على هذا الصنف أولئك الزوجات اللاتى لايكفى كسب

أزواجهن لضرورات معاشهن ومعيشة أولادهن ، فهن مع أزواجهن دائما فى نزاع وشقاق ثم تزدحم أقدامهن فى ساحات المحاكم الشرعية للمطالبة بالنفقة فإذا قدر القاضى للزوجة قرشين فى اليوم صاح الزوج هذا كثير وعدد هؤلاء النسوة لا ينقص عن مجموع من سبقهن .

إذا سلمان أن عدد النساء المصريات اللاتى ليس لهن عائل لايزيد عن اثنين فى المائة من مجموع النساء المصريات ، أفلا ينبغى لهؤلاء النسوة اللاتى قضت عليهن ضرورات الحياة بمزاحمة الرجال الأقوياء لكسب عيشهن أن يتهيأن إلى النجاح قبل الدخول فى معترك الحياة بالوسائل التى يستعد بها الرجال أنفسهم ؟ وهل يكون من الحق والعدل أن يحرمن من التربية التى تؤهلهن للدفاع عن أنفسهن ؟ وهل من مصلحة للرجال أو لعموم الهيئة الاجتماعية ان يعيش هؤلاء النساء ضعيفات جاهلات فقيرات ؟

نحن لانجادل فى أن الفطرة أعدت المرأة إلى الاشتغال بالأعمال المنزلية وتربية الأولاد وأنها معرضة لعوارض طبيعية كالحمل والولادة والرضاع لاتسمح لها بمباشرة الأعمال التى تقوى عليها الرجال ، بل نصرح هنا أن أحسن خدمة تؤديها المرأة إلى الهيئة الاجتماعية هى أن تتزوج وتلد وتربى أولادها ، هذه قضية بديهية لاتحتاج فى تقريرها إلى بحث طويل ، وإنما الخطأ فى أن نبنى على ذلك أن المرأة لايلزمها أن تستعد بالتعليم والتربية للقيام بمعاشها وما يلزم لمعيشة أولادها إن كان لها أولاد صغار عند الحاجة .

وذلك لأنه يوجد فى كل بلد عدد من النساء لم يتزوج وعدد آخر تزوج وانفصل بالطلاق أو بموت الزوج ، ومن النساء من يكون لها زوج ولكنها مضطرة إلى كسب عيشها بسبب شدة فقره أو عجزه أو كسله عن العمل . ومن النساء عدد غير قليل متزوجات وليس لهن أولاد ، كل هؤلاء النسوة لايصح الحجر عليهن عن تناول الأشغال

الخارجية عن المنزل بحجة أن لهن رجالا قائمين بمعاشهن ، أو لأن عليهن واجبات عائلية . أو لوجود عوارض طبيعية تحول بينهن وبين العمل .

نحن لانقول للمرأة : أهجرى الزواج ولاتبغى النسل أو اتركى زوجك ولولادك فى البيت واقضى اوقلتك فى الطرق وعيشى ما يعيش الرجال . فإنا نكرر القول بأننا نود أن كل امرأة تكون زوجة وأن كل زوجة تكون أما ، ولكن هذا لاينسينا أن الواقع هو غير ما نتمنى إذ الواقع أن عددا عظيما من النساء ليس لهن عائل ولا واجبات عائلية .

هذا القسم من النساء هو قليل عندنا اليوم بالنسبة للبلاد الغربية ، فإننا لو أخذنا آخر احصائية فى فرنسا لوجدنا أنه يوجد ٣,٦٢٢,١٧٠ من النساء غير متزوجات و ٢٠,٠٦٠,٧٧٨ أرامل و ٩٢٤,٢٨٦ متزوجات وليس لهن أولاد . أى يوجد فى فرنسا زيادة عن خمسة ملايين من النساء صالحات للعمل مضطرات إليه بدون أن يكون فى أعمالهن ضرر يلحق بعئلاتهن .

ولكن مع مرور الزمن وتقدم المدنية فى بلادنا سيزداد عدد النساء الخاليات عن الزواج وبدل أن يوجد اليوم اثنان فى المائة من النساء المصريات يتعيشن بصنعة أو حرفة سيوجد عن قريب أضعاف هذا العدد ، ذلك لأن الحوادث الاجتماعية خاضعة لقوانين طبيعية يسهل معها العلم بما سيكون من أمرها فى المستقبل .

لهذا يمكننا أن نؤكد أن عدد النساء المحترفات لابد أن يزداد فى كل سنة عن الأخرى لأننا سائرون فى الطريق الذى سارت فيه أوروبا قبلنا .

ولاخلاف فى أن عدد الزواج فى أوروبا هو أقل منه فى الشرق ، وسبب ذلك أن الواحد منهم لايتزوج بالسهولة التى يتزوج بها الواحد منا . فإن الأوروبى يطلب من الزوجة قرينا يرافقه طول

حياته وصاحبا يشاركه فى جميع أعماله وأفكاره وعواطفه ، فهو يطلب لها جميع الصفات التى يبحث عنها الواحد منا إذا أراد أن يتخذ له صديقا ، فالعثور عليه يكون صعبا . وأضيف على ذلك سببا آخر ، وهو أن الحالة الاقتصادية فى البلاد المتمدنة لاتسمح للفرد أن يكون قادرا على كسب عيشه قبل بلوغه سن الثلاثين إلا فى النادر ، لأنه يصادف فى طريقه مزاحمات عظيمة ، وعليه أن يخرق الصفوف التى أمامه ، هذا إن ساعده الحظ وحسن الاستعداد على نيل مركز فى التجارة أو الصناعة أو الحرف الأدبية ، والكثير منهم يقضى حياته فى البحث ولا يجد شيئا .

ومن الاحتياط عندهم ألا يتزوج الشخص قبل أن يكون على ثقة من وسيلة للرزق يحصل بها ما يكفى لمعاشه ومعاش أولاده ، لأنهم يشعرون بما يجب عليهم لعائلاتهم ولا يرضون أن يكونوا سببا فى شقاء أزواجهم وأولادهم ، فإنما الجاهل هو الذى يحمله الطيش على التعجيل بالزواج ويستهين بما تفرضه عليه تلك الزيجة ، ولايعرف لأهله حقا عليه .

فنحن مساقون فى هذا الطريق بقوة لايستطيع أحد مقاومتها ، ويظهر لى أن الزواج عندنا قد بدأ فى التناقص ، فإنى أعرف كثيرا من الذكور والاناث تجاوزوا السن الذى يحصل فيه الزواج عادة ، ولزمتهم العزوبة مختارين أو مضطرين ، ولكن لا أدرى هل ذلك عام أو خاص ببعض المواضع ، وإنما يمكننى أن أحقق أن متوسط السن الذى يحصل فيه الزواج زاد عما كان عليه فى الماضى ، فهو الآن ما بين العشرين والثلاثين فى الغالب وكان فيما مضى سن البلوغ ، وكثيرا ما كان يحصل الزواج قبله .

وليس يفيد شيئا أن يصبح أرباب الأقلام عندنا ناقمين على ما وصلت إليه حالنا اليوم وما ستصل إليه على مر الأيام وأن يستشهدوا بما وقعت فيه أوروبا من نقصان عدد الزواج فيها

واحتراف النساء بأشغال الرجال . ذلك لايفيد لأنه لايمكن أن يترتب على هذه الشكوى أثر مافى مجرى الحوادث فى العالم . ولو كانت الشكوى تكفى لتغيير الحال لكان الأمر سهلا .

والحقيقة أن أهم عامل له أثر فى حال الأمة هى حالتها الاقتصادية ، ومن الأسف هذه الحال الاقتصادية ليس فى إمكان أحد من الناس أن يحكم عليها ويدبرها كيف يشاء .

نعم يوجد فى كل أمة متمدنة عدد من النساء ألجاتهن الضرورة إلى السعى والكد والاشتغال بأعمال الرجال - أى مسترجلات إذا شئت - وهن النساء اللاتى زهد فيهن الرجال فلم يرغب أحد فى زواجهن ، والأرامل اللاتى توفى أزواجهن ، والمطلقات اللاتى تركهن أزواجهن ، هؤلاء النسوة لم يقترفن ذنبا على الهيئة الاجتماعية . فما من واحدة منهن إلا وكانت تتمنى أن تجد رفيقا صالحا يحبها وتحبه ويساعدها وتساعد ما من واحدة منهن إلا وتبكى فى وحدتها سوء حظها ، وتأسف على ضياع الأمانى التى قضت حياتها فى انتظارها

ولكن ما الحيلة إذا كان نظام الوجود يقضى بأن كثيرا من النساء يعشن فى الوحدة والانفراد ويسعين ويعملن لكسب قوتهن وقوت أولادهن وبعض أقاربهن من القواعد والعاجزين عن الكسب .

يقول المعترضون : انهم لا يمنعون النساء الفقيرات من مباشرة أعمال الرجال ، والاختلاط بهم ، كما أنهم لا يمنعون المرأة من التعليم إذا كان لازما لكسب عيشها ، لأن الضرورات تبيح المحظورات . وقد اتفق جميعهم على هذا الرأى ، حتى حضرة العالم العلامة - (هكذا هو لقب نفسه على ظهر كتابه) - الذى انتدب عن فقهاء الأزهر للرد على [تحرير المرأة] . فكلهم يرون أن منع المرأة من كشف وجهها ومن الخروج من بيتها ومزاولة أعمال الرجال والاختلاط بهم ومن التعليم الذى يؤهلها إلى هذه الأعمال هو

خاص بغير الفقيرات من النساء اللاتي تلجئهن الضرورة إلى السعي لتحصيل أرزاقهن .

ويتبين من هذا أنهم متفقون معنا في حالة الضرورة ولكنهم يخالفوننا في غيرها . فهم يرون أن الإباحة يلزم أن تكون خاصة لهذه الحالة فقط . وبهؤلاء النسوة ، ونحن نرى أنها يلزم أن تكون عامة شاملة لجميع النساء والأحوال .

ولو شاءوا أن يفهموا ما يقولون وأن يقفوا على ما يفضي إليه رأيهم هذا لوافقونا في رأينا وحكموا حكمنا . لأنهم يقولون إن المرأة تفارق الحجاب وتتناول من الأعمال ما يتناوله الرجال إذا مست الحاجة إلى ذلك ولا يخفى أن كل نفس حية معرضة لانتياب الحاجات ونزول الضرورات . والعمل الذي تدفع إليه الضرورة وتحمل عليه الحاجة لا يكفي في القيام به على الوجه اللازم أن تتوجه المرأة إليه وتدخل فيه بل يلزم قبل الدخول فيه أن تكون نفسها مستعدة تمام الاستعداد لمباشرته والاتيان به على وجه يوصل إلى المرغوب ، وهذا الاستعداد لا يكون إلا بالتربية والعلم والتمرين والممارسة واختبار الناس . فلو حرمت المرأة من التأهب لملاقاة الضرورات حتى وقعت فيها لم تسطع للخلاص منها سبيلا ، وكان حرمانها من هذا التأهب عبارة عن تسليمها للهلاك .

ويا عجبا ! كيف نتوقع الخيبة للرجل منا إذا كان ناقص التربية ، قليل المعرفة ، عديم الاختيار . ولا نتوقع تلك الخيبة للمرأة إذا اشتركت معه في هذه النقائص ؟ ! .

وحوادث الفقر والطلاق وموت الزوج والعزوبة كلها حوادث جارية ، وتقع في كل آن ، ولما كان الاطلاع على الغيب أمرا غير ميسور للإنسان وجب أن تستعد كل امرأة لهذه الحوادث قبل أن تقع فيها .

لهذا نرى أن من أهم ما يجب على الآباء أن يعدوا بناتهم لاستقبال هذه الحوادث بما يدفع شرها ويقي من ضررها ويمهد لهن سبيل الوصول إلى حظ من السعادة في هذه الحياة .

نعم ، نرى أنه يجب على كل أب أن يعلم بنته بقدر ما يستطيع ونهاية ما يمكن ، وأن يعتني بتربيتها كما يعتني بتربية أولاده الذكور ، فإذا تزوجت بعد ذلك فلا يضرها عملها بل تستفيد منه كثيرا وتفيد عائلتها وإن لم تتزوج أو تزوجت ثم انفصلت عن زوجها لسبب من الأسباب الكثيرة الوقوع أمكنها أن تستخدم معارفها في تحصيل معاشها بطريقة ترضيها وتكفل راحتها واستقلالها وكرامتها .

وسواء نظرنا إلى الفوائد المادية التي ينالها صاحب العلم من علمه أو نظرنا إلى اللذة المعنوية التي يذوقها فالتعليم على كل حال مطلوب .

بين يدي الآن كتاب ألفه أحد الكتاب الفرنساويين وهو « بول دروزيه » وسماه [الحياة الأميريكية] قال فيه عند الكلام عن تربية البنات ما يأتي :

« رأيت في أمريكا الصبيان والبنات يذهبون إلى مدرسة واحدة ، ويجلسون على مكتبة واحدة بعضهم بجانب بعض ويسمعون دروسا واحدة ويرتاضون معا ، فإذا أتموا دروسهم استمر هذا الاختلاط حيث ترى البنات في المعامل والمصانع يشتغلن ويستخدمن في « اللوكاندات » الكبيرة لمسك الدفاتر ويربين الأطفال في المدارس الابتدائية ويطلبن العلم في مدارس الطب ، وترى منهن قسيسات يخطبن في الطرق وأعضاء في الجمعيات الخيرية ورئيسات في المجالس البلدية وما أشبه ذلك . إذا أردت أن تعرف ما هو سبب هذه العادات العربية ، وما هو المقصود من تربية

النساء على هذه الطريقة ، وما هى الواجبات التى يتأهبن إلى أدائها بهذه التربية فعليك أن تتأمل فى هذه المسألة لكى تقف على سرها . إذا فكرت فيها تعلم أنه يوجد تياران متعاكسان يقابلهما حالتان للمرأة مختلفتان ، وبيان ذلك أن البنت إن بقيت عزبة تضطر إلى أن تجاهد فى سبيل الحياة كالرجل الذى يناضلها . فأحسن تربية توافقها هى تربية كتربية الرجال ، أما إذا تزوجت فحمل المعاش يكون على زوجها وهى تشتغل بإدارة منزلها وتربية أولادها ، ولكن من ذا الذى يعلم مستقبل البنت وهى فى السنة العاشرة من عمرها ؟ وما الذى يعلمه الآباء أمام هذا المستقبل المجهول ؟ رأى الأمريكانيون أن من الفطنة أن يعملوا كأن بناتهم لا يتزوجن ، وأن يربوهن كالذكور من جهة التعليم والاستقلال فى السير ، فالأب الأمريكى يربى بنته على أن تعتمد على نفسها لأنه يجهل مستقبلها فإن صادفت زوجا يريد أن يضع يده فى يدها ويقطع معها طريق الحياة كانت هذه التربية أحسن ما يؤهلها للقيام بواجباتها العائلية ، وإن لم يوجد أحد يرغب الاقتران بها فقد خلص الأب من اللائمة ، حيث أنه تبصر فى المستقبل وعمل ما يمكن أن يعمل ليعدها للغلبة على ما تلاقيه أمامها من الصعاب ومرارة الحياة » .

ويوجد حرفتان أود أن تتوجه نحوهما تربية البنات عندنا :

الأولى : صناعة تربية الأطفال وتعليمهم . هذه الصنعة هى أحسن ما يمكن أن تتخذها امرأة تريد أن تكسب عيشها ، لأنها محترمة شريفة ، والمرأة أشد استعدادا لها من الرجال وأدرى منه بطرق استمالتهم ، واكتساب محبتهم . وبلادنا أشد البلاد حاجة إلى نساء يعرفن هذه الصناعة ، فإنه لا يكاد يوجد عندنا امرأة يوثق بها فى تربية الأولاد ، والعائلات المصرية فى احتياج إلى عدد من

مربيات الأطفال حتى تستغنى بهن عن المربيات الأجنبيات ، كذلك لا يوجد في مصر مدارس للبنات تتولى إدارتها والتعليم فيها مصريات ، وهذا نقص كبير في بلادنا حيث أننا جميعا مضطرون إلى تربية بناتنا في المدارس الأجنبية .

....

والحرفة الثانية : هي صناعة الطب . كل رجل يعرف مقدار الصعوبة التى يكابدها عندما تكون إحدى النساء من أقاربه مريضة ويلح عليها أن تعرض نفسها على طبيب من الرجال خصوصا إذا كان المرض من الأمراض الخاصة بالنساء . فإذا وجد عدد من النساء يعرفن صناعة الطب فلا شك أن صناعتهن تروج رواجا عظيما بما يجدنه من الحاجة إليهن في البيوت المصرية وهنا نقول أيضا إن فن الطب هو من الفنون التى تلائم استعداد النساء الطبيعى ، وما نشاهده الآن فى المستشفيات العمومية وفى العائلات من الخدمات الجليلة التى تقوم بها النساء هى أعظم برهان على أن المرأة بما جبلت عليه من الرأفة والجلد والاعتناء الشديد صالحة لمثل ما يصلح له الرجال من معالجة الأمراض ، ان لم تكن أشد صلاحية لذلك منهم .

كذلك يمكن للمرأة أن تشتغل بجميع الأعمال التى قوامها الترتيب والتنظيم ولا تحتاج إلى قوة العضلات والأعصاب كالتجارة ، فكم من بيوت تجارية ارتفعت بأيدى النساء بعد أن كانت سقطت من أيدى الرجال ، وكذلك يمكن للنساء مزاولة جميع الحرف الأدبية .

إن المرأة المصرية إذا احتاجت اليوم إلى كسب معاشها بنفسها لا تجد عملا تتناول منه ما تقتات به إلا بعض الأعمال الشاقة السافلة كالخدمة فى بعض البيوت أو الجولان فى الطرق لبيع السلع الزهيدة القيمة ، فمنع النساء عن الاشتغال بما يشتغل به الرجال كانه فى الحقيقة تخصيص لهن بمثل هذه الأعمال الدنيئة

التى لا ينال بها إلا القليل التافه وحرمان لهن من الأعمال الشريفة التى تعود على أربابها بالمكاسب الوافرة .

فهذه المنزلة المنحطة هى التى نريد استبدالها بأرفع منها .

يجب أن تربى المرأة على أن تكون لنفسها - أولا - لا لأن تكون متاعا لرجل ربما يتفق لها أن تقترن به مدة حياتها .

يجب أن تربى المرأة على أن تدخل فى المجتمع الإنسانى وهى ذات كاملة لا مادة يشكلها الرجل كيفما شاء .

يجب أن تربى المرأة على أن تجد أسباب سعادتها وشقائها فى نفسها لا فى غيرها .

بماذا نقابل رجلا ينصحنا بقوله ربوا أبناءكم ليكونوا أزواجا فقط ولا تعدوهم إلا للزواج ؟ لا ريب أننا نقابله بالسخرية والاحتقار . لأننا نعلم أن الرجل لابد له أولا أن يكون إنسانا مستعدا لأن يلاقى من المشاق والمصاعب ما يلاقيه الإنسان ، وأن ينال من السعادة ما يليق بالإنسان أن يناله ، فمتى تعلم وصار قادرا على كسب عيشه وكان متجملا بحسن الأخلاق كان بالطبع زوجا صالحا ، فكيف نقبل نصيحة من يقول لنا : أعدوا بناتكم لأن يكن فراشا فقط . ولا تعدوهن لغير ذلك من مقاصد الحياة وغاياتها ؟ !

نتج من كل ما تقدم أن للمرأة حقا فى أن تشتغل بالأعمال التى تراها لازمة للقيام بمعاشها ، وأن هذا الحق يستدعى الاعتراف لها بحق آخر وهو أن توجه تربيتها إلى الطرق التى تؤهلها إلى الانتفاع بجميع قواها وملكاتها . وليس معنى ذلك إلزام كل امرأة بالاشتغال بأعمال الرجال وإنما معناه أنه يجب أن تهيأ كل امرأة للعمل عند مساس الحاجة إليه .

● ● ●



الواجب على المرأة لعائلتها

إلى هنا كان كلامنا فى التربية والأعمال التى لابد منها لحفظ وجود المرأة على الوجه اللائق بها . ونريد الآن أن نتكلم على الأعمال والتربية التى تلزم للمرأة لتكون نافعة فى عائلتها .

جميع الناس متفقون على أن قوام العائلة ونظامها فى يد المرأة ، ولكن ليس كل الناس سواء فى فهم هذه القضية ، فالجمهور الأعظم من الناس يفهمون أن معنى ذلك هو أن تقوم المرأة بخدمة زوجها وأولادها إن كانت العائلة فقيرة ، أو تدبر أعمال الخدمة للذين يؤدون هذه الأعمال بأوامر تصدرها إليهم ومراقبتها لهم إن كانت العائلة غنية .

إلى هذا الحد يقف فكرهم .

هكذا بخسنا المرأة حقها فى جميع الأحوال . فبعد أن حرمناها حريتها وأفقدناها استعدادها للقيام بضرورات حياتها انتهى بنا الحال إلى أن ضيقنا دائرة أعمالها ، حتى فى العائلة . وهذا أقوى دليل على أن كل ما يختص بارتقاء المرأة يرتبط بعضه ببعض . فالمرأة المهذبة الحرة هى التى يمكن أن يكون لها نفوذ عظيم فى عائلتها ، والمرأة الجاهلة المستعبدة لا يمكن أن يكون لها من النفوذ فى عائلتها أكثر مما يكون لرئيسة الخدم فى البيت .

ظن المسلمون أن تمتع المرأة بحريتها واشتغالها بما يهتم به الرجال والتوسع فى تربيتها يفضى إلى إهمالها فى القيام بما يجب عليها فى الشئون العائلية ، فوضعوا بينها وبين العالم الخارجى حجابا تاما حتى لا يشغلها شىء عن معاشرة زوجها وإدارة منزلها وتربية أولادها . ولكن انظر إلى النتيجة تجد أنها خلاف ما قصدوه ، حيث أن المرأة المصرية لا تعرف كيف تعاشر زوجها ولا يمكنها أن تشتغل بإدارة بيتها ولا تصلح لأن تربى أولادها .

ذلك لأن جميع أعمال الإنسان مهما اختلفت وتنوعت هي صادرة عن أصل واحد وهو عمله وإحساسه . فإن كان هذا الأصل راقيا كان أثره في كل شيء كبيرا نافعا حميدا وإن كان منحطا كان آثره في كل شيء حقيرا ضارا غير محمود .

فالوظيفة الحقيرة التي تؤديها المرأة المصرية عندنا اليوم في العائلة هي لمنزلتها من ذلك الأصل المتقدم ذكره ، ولكن عجز نسائنا الآن عن القيام بالأعمال التي ينبغي أن تناط بهن لا يحملنا على اليأس من ارتقائهن ولا على الحكم باستحالة بلوغهن إلى الحد الذي يرجي لهن .

فعلى المرأة واجبات غير ما يظن الجمهور عندنا ، وأهم هذه الواجبات هي : تربية الأولاد :

إذا أردت أن تعرف مقدار جهل الأمهات عندنا بأبسط مبادىء التربية انظر إلى إحصائيات وفيات الأطفال عندنا وإحصائيات تلك الوفيات في مدينة مثل « لوندرة » ، تجد أن عدد الموتى من أطفالنا يزيد عن ضعف عدد الموتى من أطفال مدينة « لوندرة » . وقد اطلعت على إحصائية مصلحة عموم الصحة التي نشرت في هذا العام فوجدت أن عدد المتوفين بين الأطفال الذين لم يتجاوز عمرهم خمس سنين هو في مدينة القاهرة ١٤٥ في الألف ويقابل ذلك في مدينة « لوندرة » ٦٨ في الألف .

فإذا كانت صحة أولادنا ومرضهم وحياتهم وموتهم متعلقة بالطريقة التي يتبعها النساء في تربيتهم أفلا يكون من ضعف العقل وسخافة الرأى أن نكل أولئك الأولاد إلى ما يقترحه الجهال ونتركهم إلى خرافات المراضع ونصائح العجائز تتصرف فيهم كيف تشاء ؟ ! .

إن الأمهات الجاهلات يقتلن في كل سنة من الأطفال ما يربو على عدد القتلى في أعظم الحروب ' وكثير منهن يجلبن على أولادهن أمراضا وعاهات مزمنة تصير بها الحياة حملا ثقيلا عليهم طول عمرهم ، وليس لهذا البلاء سبب في الأغلب سوى جهل الأمهات بقوانين الصحة ، لو كانت أم الطفل تعرف أن كل ما يتعلق بتغذية الطفل ومسكنه وملبسه ونومه ولعبه له أثر على جسمه لأمكنها أن تتخذ له وقاية من العلل بقدر معارفها الصحية . ولو علمت كل أم أن أغلب الأمراض التي تنهك جسم ولدها لا تصيبه من غير سبب ، وأنها المسئولة عن صحته ومرضه لما تساهلت في وقايته من كل ماهن شأنه أن يضر ببدنه ، ولكن كيف تصل إلى معرفة ذلك مع جهلها الذي يخيل لها أن المسببات تقع بلا أسباب أو تحصل بأسباب خارقة للعادة ؟ ' .

لا ينبغي هنا أن أشرح بالتفصيل كل ما يليق أن يعرفه القراء في هذا الموضوع ، وإنما نقول بالإجمال إن التربية الجسمية للولد وحدها تستدعي معارف كثيرة ، يتعلق أغلبها بقوانين الصحة ، وأن معرفة هذه القوانين تحتاج إلى مقدار عظيم من معارف أخرى لابد منه ليتيسر فهمها .

فعلى الأم أن تعرف أفضل الطرق لتغذية الأطفال ، لأن الانتظام في نمو الجسم يرتبط دائما بانتظام التغذية ، وجودة الأنسجة ، وخصوصا النسيج المخي ، تتعلق بجودة التغذية حتى قال بعض علماء الطب : إن الأمم التي تفضل غيرها في التغذية تفوق سواها في القوة وتتغلب على غيرها من الأمم ! .

وعلى الأم أن تعرف كيف تقي جسم ولدها من أعراض الحر والبرد ، وما هو الماء الذي ينبغي استعماله في نظافة جسمه من حار أو فاتر أو بارد ، وعليها أن تعرف أن للهواء والشمس أثرا حميدا في الصحة ، فلا تحرمه من التمتع بهما . وهكذا يقال في

الأشياء الأخرى كالنوم واللعب وما أشبه ذلك .

ثم يجب عليها من جهة أخرى أن تكون على علم تام بنفس الطفل ووظائف قواه العقلية والأدبية ، وإلا كانت أول عامل في فساد أخلاق ولدها .

انظر إلى ما تعمله امرأة مصرية مع ولدها تجده مما لا يصدر عن إنسان عاقل يقدر لعمله نتيجة . مثال ذلك أنها تمنعه من اللعب كي لا يشوش عليها ، وهي لا تدرى أنها بمنعها له عن اللعب تقف في سبيل نموه . وإذا أرادت أن تؤدبه هددته بما لا تستطيع أو بما لا تريد أن تنفذه أو خوفته بموهومات تثير في ذهنه خيالات ربما لازمته مدة حياته ، وإذا أرادت أن تكافئه وعدته بوعود لا تفي بها ، فتكون له بذلك قدوة في الكذب ، وتحدث في نفسه ضعف الثقة بالقول ، وهي في أغلب حالاتها تظهر الغضب عليه وتنهره بالصوت الشديد وتزعجه بحركات التهديد ، كأنها تريد أن تثبت له بأقوى الدلائل أنها عاجزة عن ضبط نفسها وسياسة قواها ، وربما كان السبب الذى أثار غضبها لا يستحق من ذلك كله شيئا فإذا رأت منه انفعالا مما صدر منها لم تلبث أن تضمه وتقبله وتظهر له غاية الندم على ما صدر منها ، والولد المسكين لا يدرى كيف استحق غضبها أولا ثم رضاها ثانيا .

هذه العيوب ليست خاصة فقط بالأمهات بل تجد كثيرا من الآباء عندنا ، لجهلهم بطبيعة الإنسانية ، يستعملون في تربية أولادهم طرقا لا تقل في الشناعة والسخافة عما تستعمله النساء . ومن أقبح ما يصنعه كثير من الآباء مع أبنائهم أن يشتم ويسب الوالد ولده بألفاظ لا يدرى الطفل معناها فيجيبه الولد بمثلها ، فإذا أحسن الإجابة ضحك أبوه مسرورا واستبشر بنجابة ولده ! . وكذلك ترى الواحد يأمر ولده أمرا لا داعي له فيخالفه الطفل فينقض عليه كالوحش فاقد الشعور ويضربه في أى مكان يصادفه من جسمه .

ولم يكن ذلك إلا لأنه يرى فى عدم طاعة ولده إخلالا بسلطته وامتهانا لعظمته .

ولو كان هذا الأب يعقل ما يفعل وعلم أن كل ما يعود عليه الطفل في نشأته يحدث فى نفسه أثرا يكون مبدأ لملكة راسخة فيها لما عوده على مالا يحسن أن يراه منه فى كبره ، ولو علم أن المقصود من التربية ليس أن يتعود الطفل على أن يطيع كل آمر يصدر إليه ، وإنما الغرض منها أن يتعود على أن يحكم نفسه لاجتنب الأمر والتهديد والضرب ، فإن هذه الوسائل لا تهيىء الطفل إلى أن يحكم نفسه ، وإنما يتمرن الطفل على أن يحكم نفسه إذا اجتهد أبواه في إقناعه وتنبيه عقله إلى عواقب أفعاله حتى يتولد في نفسه اعتقاد ثابت بأن ما يصيبه من خير أو شر فهو من كسبه .

أفضل طريق للتربية يؤدى إلى هذه الغاية - (أن يحكم الشخص نفسه) - هى أن يترك الطفل وميله ، يعمل العمل حسب ما يسوقه إلى خاطره ، ولا يتداخل المربى إلا ببيان ما ينتج عن هذه الأعمال بصورة نصيحة وإرشاد . فإذا لج الصبى فى مخالفة النصيحة تركه حتى يقع في عاقبة عمله ، لكن مع المراقبة الدقيقة كى لا يكون ضرر العمل شديدا ، وإنما يسوغ الردع والمنع فى الأحوال النادرة التى يعرض الصبى نفسه فيها للخطر .

بهذه الطريقة يستعد الطفل إلى أن يكون رجلا يعتمد على نفسه فى الوقت الذى لا يجد بجانبه أحدا يدفع عنه ويحافظ عليه .

يمكننى أن أقرر بوجه الإجمال حقيقة أود أن يطلع عليها كل أب وأم ، وهى أن جميع العيوب التى تشاهد عند الأطفال ، مثل الكذب والخوف والكسل والحمق ، هى ناشئة من جهل أبويه بقواعد التربية ، وأن من السهل إزالة هذه العيوب بالوسائل الأدبية ، وقد يتوصل لإزالتها بالوسائط الطبية .

إذا كانت وقاية الطفل من الأمراض وتطهيره من العيوب مما يحتاج إلى معلومات كثيرة كما ذكرنا . فالوقوف على غرائز الطفل الطيبة وغرس الصفات الحميدة فى نفسه يحتاج إلى معارف أدق ومعلومات أوفر .

يظن الجمهور الأعظم من الناس أن التربية من الهنات الهينات ، ولكن من يعرفها حق المعرفة يعلم أن لا شىء من الشئون الإنسانية . مهما عظم . يحتاج إلى علم أوسع ولا نظر أدق ولا عناء أشق مما تحتاج إليه التربية ، أما من جهة العلم فلأنها تحتاج إلى جميع العلوم التى توصل إلى معرفة قوانين نمو الإنسان الجسمانى والروحانى ، وأما من جهة المشقة والعناء فلأن تطبيق هذه القوانين على ما يلائم حال الطفل من يوم ولادته إلى بلوغه سن الرشد يحتاج إلى صبر ومثابرة فى العمل ودقة فى الملاحظة والمراقبة قلما يحتاج إليها عمل آخر . لا يؤخذ من ذلك أنى أذهب إلى أن كل أم يجب عليها أن تحيط بتلك العلوم الواسعة ، ولكن أقول أن جميع الأمهات يجب عليهن أن يعرفن كلياتها ، وكلما زاد علم الواحدة منهن بأصول تلك العلوم وفروعها زادت قوة استعدادها لتربية أولادها .

يرى القراء أنى أهملت شأن الآباء عند الكلام على التربية ، وليس ذلك من باب السهو بل لأن مدار التربية كلها على الأم ، فالولد ، ذكرا كان أو أنثى ، من وقت ولادته إلى سن المراهقة ، لا يعرف قدوة له سوى والدته ، ولا يعاشر غيرها ، ولا يرد على حواسه إلا الصور التى تعرضه لها ، فنفسه صحيفة بيضاء وأمة تنقشها كما تشاء ، ويتم نقش الصحيفة وتكون كتابا مسطورا عندما يبلغ الطفل سن الرابعة عشرة ، كما قال « الفونس دوريه » ، وليس فى إمكان الناشىء بعد ذلك أن يضيف على ما رسا فى نفسه أو ينقص منه إلا شيئا قليلا لا يترتب عليه تغيير الكتاب .

هذا السر في احترام الغربيين نساءهم وتقديسهم أمهاتهم . فهم يعلمون أن كل ماهم عليه من الصفات الحسنة والأخلاق الطيبة ، هو من فضل أمهاتهم اللاتي أودعن فيهم بضعة من أرواحهن . وهي خير بضعة كانت عندهن . ان كان بين الغربيين من يشعر من نفسه بحب الحق والميل إلى جميل الفعال ويقدر شرف النفس قدره ، ويرأف بالفقير ويتألم لأنين المريض ويرحم الحيوان ، ان كان يوجد بينهم من جعل الترتيب والنظام قاعدة عمله والجد والاجتهاد مشتهى نفسه ، ان كان فيهم من يجد في نفسه احتراما لدينه وتكريما لشأن وطنه وشوقا إلى طلب الكمال في كل شيء ، فليس ذلك لأنه قرأ في الكتب أو تعلم في المدرسة أن هذه الصفات ممدوحة ـ ولو كان الأدب يعلم بالحفظ لكان إصلاح العالم من أسهل الأمور ـ وإنما كان ذلك لأن والدته أرادت أن يكون علىٰ هذه الصفات ، وكابدت مالا يوصف من المتاعب لطبعها في نفسه وتثبيتها في طبعه

فهي التي كانت تحرص ألا يقع تحت حواسه صورة قبيحة ، وهي التي كانت تقدم إليه صور الأشياء الجميلة على أشكالها المختلفة . وهي التي كانت تعوده على العادت النافعة شيئا فشيئا حتى رسخت فيه كما ترسخ جذور النباتات في الأرض .

هذه الوظيفة التي تقوم بها الأمهات في تلك البلاد هي أهم وأنفع ما يعمله إنسان حي على وجه الأرض إذ لا يوجد شيء أهم ولا أنفع من تهذيب نفوس الأطفال وإعدادهم لأن يكونوا رجالا صالحين

من هذا يتبين أن عمل المرأة في الهيئة الاجتماعية هو تكوين أخلاق الأمة ، تلك الأخلاق التي أثرها في الاجتماع ، من حيث ارتقاء الأمم وانحطاطها ، يفوق آثار النظامات والقوانين والديانات .

لهذا لا يوجد بين الغربيين من يجهل مقام المرأة في الوجود الاجتماعي وشأنها في العائلة ولا بأس من أن نورد هنا شيئا من كلام بعض فلاسفتهم لنبين للقراء منزلة النساء في رأيهم .

قال « سيملس » : « للمرأة في تهذيب النوع الإنساني أكثر مما لأي أستاذ فيه ، وعندي منزلة الرجل في النوع منزلة المخ من البدن ومنزلة المرأة منزلة القلب » .

وقال « شيلر »[1] : « كلما وجد رجل وصل بعمله إلى غايات المجد وجدت بجانبه امرأة محبوبة » .

وقال « روسو »[2] : « يكون الرجال كما تريد النساء . فإذا أردت أن تجعل الرجال من ذوي الهمة والفضيلة فعلم النساء الهمة والفضيلة » .

وقال « فنلون » : « إن الواجبات التي تطالب بها النساء هي أساس الحياة الإنسانية فالمرأة تدير جميع شئون العائلة ، وبهذا العمل يكون لها أعظم نصيب في إصلاح الأخلاق أو إفسادها . ليست الأمة صورة تقوم بنفسها كما يتخيل ، وإنما هي مجموع جميع العائلات ، وما من أحد يمكنه أن يهذب العائلة سوى المرأة » .

وقال « لامارتين » : « إذا قرأت المرأة كتابا فكأنما قرأ زوجها وأولادها » .

وأمثال هذه الحكم مما نطق به العلماء والفلاسفة وما ورد في مؤلفاتهم لبيان ما للمرأة من الأثر في إصلاح أخلاق الأمم بلغ من الكثرة حدا بحيث لا تمكن الإحاطة به .

---

(١) فريدريخ فون شلير (١٧٥٩ ـ ١٨٠٥ م) شاعر وكاتب مسرحي ومؤرخ وفيلسوف ألماني لحن له بيتهوفن بعض أناشيده

(٢) جان جاك روسو (١٧١٢ ـ ١٧٧٨ م) فيلسوف فرنسي . تعتبر آراؤه من الأفكار التي مهدت لقيام الثورة الفرنسية . وهو صاحب كتاب [العقد الاجتماعي] كما اشتهر باعترافاته .

ومن الغريب أن الكثير من شبابنا الذين لهم إلمام باللغة الأجنبية والذين لابد أن يكونوا قد اطلعوا على بعض هذه المؤلفات يرون انى بالغت فى إعلاء شأن المرأة وتعظيم وظيفتها بل كان من أمر بعضهم أن احتقر رأينا وعده من سقط المتاع الذى لا يليق بأن ينظر فيه . وكان العالم الأزهرى الذى رد على كتاب [تحرير المرأة] قد عبر عن أفكارهم عند قوله :

« ماسمعنا فى تاريخ من التواريخ ولا فى سفر من الأسفار ولا فى خبر من الأخبار أن أمة من الأمم أو دولة من الدول تقدمت بنسائها وارتفع شأنها بإناثها ، وهذه الدول الأوروباوية قد ارتفعت فى هذه الأيام واشتهرت بالعلوم والمعارف والحرف والصنائع واختراع الأمور العظيمة التى عم نفعها ، فأى شىء من هذه العلوم والمعارف وأى أمر من مخترعات الحرف والصنائع اشتهرت به امرأة من النساء ؟ .

والذى يقرأ هذه السطور يحق له أن يظن هذا العالم الأزهرى وأمثاله لم يطلعوا على تاريخ من التواريخ ولا سفر من الأسفار ولا خبر من الأخبار ! .

فالنساء اللاتى خلد التاريخ ذكرهن لشهرتهن بالعلوم والمعارف أو بالأعمال العظيمة لسن بذى العدد القليل ، وتوجد مؤلفات ضخمة تشتمل على تراجم حياتهن ، وليس فى إمكاننا أن نأتى هنا على ذكر أعمال بعض من اشتهر من النساء فى التاريخ ، وربما تسمح لنا الفرصة بوضع كتاب لذلك ، إنما يمكننا أن نؤكد هنا أنه لا يوجد علم من العلوم ولا فن من الفنون إلا وقد برهنت المرأة فيه على أنها مستعدة إلى أن تصل إلى أعلى مراتب الكمال الأنسانى .

وإنى استلفت العالم الأزهرى خصوصا إلى سلف أمته الصالح ليعلم أن تاريخ دينه لم يخل من ذكر النساء اللاتى كان لهن أجمل الأثر فيه .

على أن الأمر لا يحتاج تحقيقه إلى التاريخ ، فقد وجد في القرن الذى نحن فيه كثير من النساء اللاتى ارتفع شأنهن وذاع ذكرهن فى جميع الممالك المتمدنة .

هذه « مارية متشل »[1] اكتشفت نجما ذا ذنب سمي باسمها ، وعينت مديرة « لرصد خانة » في أمريكا ، ومعلمة لعلم الفلك ، ولها مؤلفات كثيرة فى هذا العلم .

و « كارولين هرشل »[2] اكتشفت سبعة نجوم ، فمنحها مجمع علمي « لوندرة » الميدالية الذهبية .

و « تريز دويافير » لها مؤلفات عظيمة فى الجغرافيا وفى علم طبقات الأرض ، وكانت عضوا فى المجمع العلمى بمدينة « منخ » .

و « صوفى جرمين »[3] لها اختراعات جليلة فى العلوم الطبيعية .

وكل أهل العلم يعلمون أن « المركيزة دوشاتليه » هى التى نشرت مذهب « نوتون »[4] فى فرنسا ، و « كلمنس رويه » هى التى نشرت مذهب « داروين » ، و « مدام استيل » هى أول من عرف ألمانيا لأوربا ، وكذلك « مدام تارنوسكى » هى التى نشرت مذهب « لمبروزو » فى البلاد الروسية .

أما عدد الفلاسفة والأدباء من النساء اللاتى نشأن فى هذا القرن

---

(١) ماريا ميتشل (١٨١٨ - ١٨٨٩ م) .
(٢) كارولين لكرشيا هرشل (١٧٥٠ - ١٨٤٨ م)
(٣) (١٧٧٦ - ١٨٣١ م) وهى فرنسية .
(٤) اسحق نيوتن (١٦٤٣ - ١٧٢٧ م) انجليزى . اشتهر باكتشاف قانون الجاذبية . وهو أعظم علماء عصره .

الذى سبق لا يمكن حصره في مثل هذا الكتاب ، ولكنى لا أرى بدا من ذكر اثنتين من بينهن لم يسبقن رجل فى فن الكتابة وهما « مدام لافايت »[١] و « جورج سند » .

على أن الارتباط الذى ادعيناه بين تقدم الأمم وارتقاء حال النساء لم نقصد به أن المرأة تفيد الأمة مباشرة باختراعاتها العلمية ومذاهبها الفلسفية ، وإنما نعنى به بخاصة مالها من العمل فى إصلاح العائلة ثم الأمة على الوجه الذى بيناه .

وبعبارة أخرى نقول : إن ظهور رجل عالم او حكيم فاضل فى أمة يعد من الحوادث التى يشترك فى إحداثها سببان :

الأول :استعداده بالوراثة لما ظهر فيه .

والثانى : تربيته التى ساعدت على نمو هذا الاستعداد فيه . بحيث لو فقد أحد هذين السببين امتنع احتمال وجود هذا الرجل العالم أو الفاضل .

من هذا يتبين أن شخصية الإنسان الأدبية تتكون من عاملين عامل طبيعى ، وعامل صناعى ، وليس فى استطاعتنا أن نؤثر فى الأول ، ولنا على الثانى سلطة واسعة ، حيث أنه يمكننا بالتربية الأولى أن ننمى غريزة الطفل ، ان كانت غريزة صالحة ، ونكملها ونزيدها حسنا ، ويمكننا أن نضعف من أثرها إن كانت بضد ذلك . نعم ان لهذه السلطة الثانية حدا تنتهى إليه ، ولكن سعة دائرتها تمكننا من الانتفاع بها انتفاعا عظيما إذا عرفنا كيف نتصرف فيها واهتدينا إلى طرق التربية الصحيحة .

---

(١) مارى لافايت (١٦٣٤ ـ ١٦٩٢ م) روائية فرنسية صاحبة رواية [أميرة كليف]

فهذه التربية الأولى ـ وزمامها فى يد المرأة ـ هى التى أكسبتها ذلك المقام الرفيع الذى لا يعلوه مقام فى الهيئة الاجتماعية .

وليس تأثير المرأة فى العائلة قاصرا على تربية الأطفال ، بل المشاهد بالعيان أن المرأة تؤثر على جميع من يعيش حولها من الرجال . فكم من امرأة سهلت على زوجها وسائل النجاح فى أعماله ، وأعدت له أسباب الراحة والاطمئنان ليتفرغ لأشغاله ، وكم من امرأة شاركت زوجها أو أخاها أو والدها فى متاعبه ، وكم من امرأة طيبت قلب الرجل وقوت عزيمته فى حالة اليأس والقنوط ، وكم رجل طلب المجد ومعالى الأمور طمعا فى إرضاء محبوبته فبلغ الغاية مما طلب .

وضع « استوارت ميل » فى صدر كتابه المسمى (الحرية) الذى طبعه بعد وفاة زوجته العبارة الآتية

« إنى أهدى هذا الكتاب إلى الروح التى ألهمتنى أحسن ما وضعته من الأفكار ، إلى صديقتى وزوجتى التى كان غرامها بالحق والعدل أعظم ناصر لى ، والتى كان استحسانها من أكبر المكافآت التى أرجو نيلها على عملى . كان لها فى جميع ما كتبته إلى الآن ، ولها فى هذا الكتاب ، حصة من العمل لا تنقص عن حصتى فيه . وأكبر أسفى أن هذا الكتاب طبع بالحالة التى هو عليها الآن قبل أن تعيد النظر فيه ، ولو كان فى استطاعة قلمى أن يعبر عن نصف ما دفن معها من الأفكار العالية والوجدان السامى لانتفع العالم به أكثر مما ينتفع بجميع ما أكتبه صادرا عن فكرى ووجدانى بدون مشورة عقلها الفريد ! » .

وكانت زوجة « باستور »[١] الشهير مشاركة له فى جميع مباحثه

---

(١) لويس باستير (١٨٢٢ ـ ١٨٩٥ م) الكيملوى الفرنسى صاحب الأبحاث التى نشأت عنها « البسترة » . والتى أدت لزوال عقيدة التولد الذاتى .

العلمية وبنت « لمبروزو » تشتغل إلى الآن مع والدها ، ومن هذا القبيل أن « مارك » الشهير فقد بصره فلم يجد له معينا على معيشته إلا ابنته ، فكانت تلقى دروسا بالأجرة وتمد والدها بما تكسب من دروسها ، ثم انها كانت تحثه على إتمام بحثه العلمى ، وتكتب ما يمليه عليها ، حتى صار بمعونتها من أشهر علماء التاريخ الطبيعى .

هذه الأمثلة ، وغيرها مما يطول شرحه ، تدلنا على أن المرأة المهذبة يمكنها ، فضلا عن تربية أولادها ، أن تعمل كثيرا من الأعمال لمصلحة الرجال وسعادتهم . وأى مصلحة للرجل أعظم من أن يعيش وبجانبه رفيقة تلازمه فى الليل والنهار ، فى الإقامة والسفر ، فى الصحة والمرض ، فى السراء والضراء ، رفيقة ذات عقل وأدب ، عارفة بحاجات الحياة كلها ، تهتم بكل شىء يمس بمصلحة زوجها ومستقبل أولادها ، تدبر ثروته ، وتحافظ على صحته وتدافع عن شرفه ، وتروج أعماله ، وتذكره بواجباته ، وتنبهه إلى حقوقه ، وتعرف أنها باجتهادها تجد فى منفعتها كما تجد فى منفعة زوجها وأولادها ؟ .

وهل يسعد رجل لا يكون بجانبه امرأة يهبها حياته ، وتتشخص الكمال بصداقتها أمام عينيه فيعجب بها ، ويتمنى رضاها ، ويتوسل إليها بفاضل الأعمال ، ويدنو منها بعقائل الصفات ومكارم الأخلاق ، صديقة تزين بيته ، وتبهج قلبه ، وتملأ أوقاته ، وتذيب همومه ؟ .

هذه الحياة التى لا يشعر الرجال عندنا بشىء منها هى من أعظم الينابيع للأعمال العظيمة . وأقول ، ولا أتردد فى ما أقول : إذا لم تبلغ رقة الإحساس عندنا إلى حد يرتبط الرجال فيه مع النساء على نحو ما ذكرنا ، واستمر الرجال على إهمال النساء وتركن فى هذه الحالة الساقطة التى يتألم الكل من آثارها وهم لا يشعرون ، ولم يباردوا بإعداد المرأة بالتربية إلى أن تكون رفيقة مساوية

للرجل ، وعشيرة عارفة بإدارة بيتها ، وصديقة تفدى زوجها بأعز ماالديها ، وأما محيطة بَما يجب عليها لأولادها ، عارفة بطرق تربيتهم ، فكل ما فعلناه إلى الآن وكل ما نفعله فى المستقبل لترقية شأن أمتنا يضيع هباء منثورا ' .

هذا هو الحق الذى انتهينا إليه عند بحثنا عن أسباب تأخر الأمم الشرقية عموما والإسلامية خصوصا .

هذا الرأى الذى عرضناه على القراء أولا نعرضه عليهم الآن مرة ثانية . وكل ما نرجوه منهم هو أن (لا يضربوا به عرض الحائط) . كما أشار عليهم كثير من أصحاب الأفكار والكتاب الذين طعن أغلبهم فى كتاب [تحرير المرأة] قبل أن يقرأه .

لا خلاف فى أن الأمم الإسلامية فى حالة ضعف تستدعى المبادرة إلى علاجها فيتعين علينا أن نشخص هذا الداء بمعرفة أسبابه أولا ، ثم نبحث عن دوائه ، كما يفعل كل طبيب يهتم بعلاج مريض . فما هى أسباب الداء ؟ .

أسبابه تنحصر إما فى الاقليم ، أو فى الدين ، أو فى العائلة .

أما الأقليم فلا يصح أن يكون سبب الداء ، لأنه من المعلوم أن الأمة المصرية من أقدم الأمم ، ويعترف لها المؤرخون بالسبق فى ابتكار كثير من العلوم والصنائع التى انتقلت منها إلى اليونان ثم إلى الرومان ثم إلى العرب ثم إلى أوروبا . وظهر فيها أول دين كبير فى العالم ، وتمتعت مدة قرون بمدنية مشهورة لاتزال آثارها إلى الآن ، وستبقى خالدة فى مالايزال وحكمت نفسها ودبرت أمورها مدة أجيال ، بل أتى عليها زمن تغلبت فيه على ما جاورها وبعد عنها من الأمم العظيمة وقهرتها وأخضعتها لحكمها . ثم بعد فقد استقلالها حافظت على وجودها وهيئتها رغما عما طرأ عليها من التقلبات والمظالم والمصائب التى توالت عليها . وهذا يدل على أنها وهبت فى طبيعتها حياة قوية ، وأنها مستعدة للمقاومة فى المزاحمة مع

الأمم الأخرى . فإذا كان الإقليم لم يعق الأمة المصرية عن اتيانها بأعظم الأعمال ، ولا عن تأسيس الشرائع وابتكار العلوم والفنون ، فلماذا يصير مانعا لها من الترقى فى هذه الأيام التى قد تلطفت فيها بلا ريب درجة حرارة الإقليم ؟ .

على أنه لم يثبت بأدلة صحيحة يسندها العلم أن الحرارة تؤثر فى الجسم والعقل تأثيرا سيئا وغاية ما ينشأ عن اختلاف الإقليم تفاوت فى الأمزجة والأخلاق بين الأمم . فمن المشاهد أن سكان الشرق يمتازون بالذكاء وسرعة الفهم وقوة الذاكرة . وهذه الصفات النفسية تعوضهم ماقد ينقصهم من الجلد والمثابرة فى العمل .

وفى الشرق أقاليم باردة وسكانها ليسو أقل انحطاطا فى المدنية من سكان الأقاليم الحارة .

وأما نسبة تأخر المسلمين فى المدنية إلى الدين الإسلامى فهو خطأ محض . من ذا الذى يقول إن الدين الإسلامى ، الذى يخاطب العقل ويحث على العمل والسعى ، يكون هو المانع من ترقى المسلمين ؟ . وقد برهن المسلمون أن دينهم عامل من أقوى العوامل للترقى فى المدنية ، ولا يجوز بعد سطوع هذا البرهان التاريخى أن يرتاب أحد فى هذه المسألة . نعم ان الدين الإسلامى الصحيح قد تحول اليوم عن أصوله ، واستتر تحت حجب من البدع ، ووقف نموه ، وانقطع ارتقاؤه من عدة قرون . وظهر لهذا الانحطاط الدينى أثر عظيم فى أحوال المسلمين ، ولكن هذا الانحطاط الذى ينسب إليه بعض الكتاب الغربيين تأخر المسلمين فى المدنية يحتاج نفسه إلى سبب يُردّ هو إليه ، فهو سبب ثانوى لا أولى .

وعلى هذا فليس مانراه فى أحوال المسلمين ناشئا عن السببين المذكورين ، فإن أحدهما لا تأثير له بالمرة ، والثانى يعد من الأسباب الثانوية ، بقى عندنا السبب الثالث . فهو الذى ينبغى أن تنسب إليه هذه الحال التى نشكو منها . فانحطاط المسلم كانحطاط

الهندى والصينى وجميع سكان الشرق ، ما عدا اليابان ، ناشىء من حالة العائلة فى هذه الجمعيات .

وذلك أن العائلة هى أول شىء يقع تحت حواس الإنسان فى أول نشأته ، وهى الشىء الثابت المستمر الذى يراه دائما ، فإذا رأى الطفل فيها مثال الترتيب والعمل ورفعة النفس ورقة العواطف تعلقت نفسه بهذه الخلال ، وبهذا التعلق يخطو الخطوة الأولى فى سبيل ارتقائه حتى إذا صار رجلا وجد من حاله الشخصى مايساعده على هذا الارتقاء .

....

فالارتقاء حينئذ له دوران :

الأول : دور اعدادى يقطعه الإنسان فى مدة طفولته وصباه . وفيه ترتسم فى نفس الطفل الترتيب والتنظيم . وينشأ فيه الميل إلى الفعال الجميلة ، وتتوجه نفسه إلى حب الكمال وتتعود فيه آلات الجسم على النشاط والحركة .

والثانى : دور عملى يقطعه الإنسان فى سن الرجولية إلى آخر العمر ، وفيه تخرج هذه الصفات من حالة الكمون إلى الظهور فى العمل .

فإن أهمل الإعداد فى الدور الأول استحال صعود الشخص فى درجات الارتقاء . ومهما حفظ بعد ذلك من العلوم فى المدارس ، ومهما كانت التعاليم الأدبية أو الدينية التى تلقى عليه . فهو يعيش كالطائر الذى قص جناحه ، كلما هم أن يطير سقط ، ومتى تحقق بالتجربة من عجزه استسلم إلى حظه ورضى به وانتهى الحال إلى أن يفضله على كل شىء سواه .

ذلك لأن التعليم ، سواء كان دينيا أو علميا ، لايمكن أن يكون له أثر نافع إلا إذا وجد من النفس عونا على النجاح ، كما أن البذرة مهما كانت جيدة لاتنبت إلا فى الأرض الصالحة لنموها .

يقضى أولادنا الآن أوقاتهم فى تعلم القراءة والكتابة واللغات الأجنبية ومطالعة العلوم سنين ، ثم ينتقلون إلى علوم أخرى أعلى وأرفع من تلك ، فإذا انتهت مدة الدراسة ودخلوا فى ميدان الحياة العمومية انتظرنا منهم أن يكونوا بيننا رجالا ذوى إحساس شريف وعواطف كريمة وأخلاق حسنة وهمم عالية ، رجالا يشعرون ويعملون ، ورجونا منهم أن نجنى ثمار هذا التعليم الذى بذل فى سبيله النفيس من الوقت والمال . ولكن ، واأسفاه ! نرى آمالنا فيهم خائبة نرى لهؤلاء الشبان المتعلمين قلوبا يابسة وهمما صغيرة وعزائم ضئيلة ، أما العواطف فهى بالتقريب ، فيهم معدومة ، فلا يروق لأعينهم منظر جميل . كما لاينفرهم مشهد قبيح ، ولا يعطفهم حنو ، ولاتبكيهم مرحمة ، ولا يحترمون كبيرا ، ولا يستصغرون صغيرا ، ولا تحركهم منفعة إلى عمل مهما عظم نفعه .

وليس لذلك من سبب سوى أن التربية لم تتناول وجدانهم فى أول السن ، هذا الوجدان الذى هو المحرك الوحيد للعمل لايظهر ولا يقويه ولاينميه إلا التربية البيتية ، ولا عامل لها فى البيت إلا الأم ، فهى التى تلقن ولدها احترام الدين والوطن والفضائل وتغرس فى نفسه الأخلاق الجميلة وتنفث فيها روح العواطف الكريمة ، وأشد من هذا كله أثرا فى نفسه ظهورها فى عينيه متحلية بهذه الصفات ، فيقلدها من غير فكر ، ثم يعتاد على ذلك شيئا فشيئا حتى تصير هذه الصفات حاجات لنفسه لايمكن أن تنسلخ عنها .

ولايكون لنفسه شىء من ذلك إذا قضى زمن صباه ولم ترد عليه صورة من هذه الصور ولم ينطبع فى روحه مثال من هذه الأمثلة ، فلو أدركها بعد ذلك بالتعليم كانت محفوظات فى ذهنه لاينفذ منها شىء إلى باطن نفسه ، فلا يحدث له شعور صحيح يكون داعية للعمل وحاثا عليه .

من هذا ترى شعراءنا ينمقون القوافى فى وصف مايكابد العاشق من مرارة العشق وآلامه ، وهم لايعشقون ، وخطباءنا يلقون على أسماع غيرهم أحسن المقالات فى حب الوطن والحث على القيام بالواجبات الوطنية ، ولا يأتى قائل منهم بشىء يبرهن به على أنه شاعر بما يقول وترى أن أهل الدين الذين وقفوا حياتهم على خدمته أقل الناس شعورا بالإحساس الدينى الحقيقى ، وترانا جميعا منصرفين عن كل شىء ونحن نطلب كل شىء !

بينما كنت أكتب هذه السطور اطلعت فى جريدة [المؤيد] على رسالة لحضرة الفاضل ابراهيم بك الهلباوى[1] حررها على ظهر المركب التى سافر فيها فى هذا العام إلى أوروبا ، وقد أعجبنى من هذه الرسالة المفيدة أمر أخصه بالذكر وهو توخى كاتبها الصدق فى القول ، والذى دعانى للكلام عليها هنا هو أن حضرة ابراهيم بك الهلباوى شرح لنا ماكان يجده من نفسه ويتردد فى صدره عندما مر على جزيرة « كريد » فقال :

« هذه أول مرة انكشفت فيها لعينى هذه الجزيرة بعد انسلاخها من حكم الدولة وإعطاء أوروبا اياها هدية لثانى أنجال ملك اليونان ! وقد حاولت حال المرور بها أن أتذكر بحسرة وجزع الحوادث التى سبقت أو اقترنت أو نتجت عن هذا التغيير ، من قتل وسفك دماء مسلمى هذه الجزيرة وما نالهم من الذل والمظالم ، ثم مصادرة من بقى منهم فى أموالهم وثمرات أتعابهم ، كمسلم حقيقى يألم بمصائب أخيه ، فلم تجد نفسى فى جسمى دما يتأثر ولا بقلبى محلا للأسف أو الرحمة » .

---

(١) من أشهر المحامين والخطباء بمصر فى عصره تولى الدفاع عن وجهة نظر الاستعمار الانجليزى ضد الفلاحين المصريين فى محاكمة دنشلوى ؟ توفى سنة ١٩٤٠ م

« ولما تساءلت مع وجداني عن سبب هذا الجمود وعدم المبالاة بما دهمنا من النوائب والمصائب . قلت : لعل ذلك لكثرة مالحقنا منها حتى تدمم[1] القلب وأوشك أن يقال عنه : « تكسرت النصال على النصال » .

« وقد بدا لنفسي جواب آخر على عدم الاكتراث بما أصاب مسلمي كريد . لم يبعد عني اختلاج النفس بالأسف على مصائبهم فقط بل أوشك أن يخجلني ، حيث مر بخاطري حسبان ذلك المصاب ، ذلك اني قبل المجيء إلى الإسماعيلية كان آخر سفري على خط السويس من جهة القاهرة محطة الزقازيق ، ثم اتجه القطار بنا نحو الاسماعيلية . وهي المرة الأولى في حياتي التي مررت بها على « التل الكبير » و القصاصين و« المحسمة » و « نفيشة » . هذه المواقع التي اتخذت خطوطا للدفاع ضد الجيش الانكليزي في سنة ١٨٨٢ والشأن ان المرور على مثل هذه البقاع للمرة الأولى يحرك لوعة الأسف وذكرى ضياع مجد البلاد واستقلالها . ومع ذلك لم أجد ألما أو اضطرابا ؟ » .

هذا ما كتبه أحد رجال المصريين المشهورين بالذكاء ومحبة الوطن وإذا أردنا أن نصدق في القول مثله يجب علينا أن نعترف اننا إذا مررنا نحن أيضا على هذه البقاع وشاهدناها فلا تتحرك نفوسنا أكثر مما تحركت نفسه ، ولا تشعر بأكثر مما شعر .

ومن البديهي ان هذا الجمود . كما سماه صاحب هذه المقالة ، ليس منشؤه ان ابراهيم بك الهلباوي رجل جاهل أو لايعرف ان محبة الوطن واجبة ، وليس سبب هذا الجمود ماتوهمه حضرته من ان قلوبنا صلبت لكثرة مالحقنا من المصائب ، لأن توالي المصائب

---

(١) أي طلي وغطي بالطلاء .

لايذهب بالشعور من النفس ولايضعفه بل يزيد الشعور ويقويه ويعلم الصبر ويشد العزائم .

وإنما السبب الحقيقى لفقد الشعور إلى هذا الحد هو إهمال تربية العواطف عندنا فى زمن الطفولية . وتبع ذلك أن أعصابنا أصبحت لاتتأثر إلا بالإحساسات المادية التى تقع عليها مباشرة ، وصارت غير قابلة للتأثر بالمعانى النفسية .

رأيت مدة وجودى فى فرنسا طفلا عمره عشر سنين كان يتفرج بجانبى على فرقة من العساكر الفرنساوية وهى عائدة من حرب التونكين . فلما مر أمامه حامل العلم وقف هذا الغلام باحترام ورفع قبعته وحيا العلم وصار يتابعه بنظراته حتى غاب عنه ، فأحسست ان الوطن تجسم لهذا الطفل فى العلم الذى مر أمامه وأثار فيه جميع الإحساسات التى بعثها فيه ما تربى عليه من حبه حتى خلقه رجلا كاملا ، أما الرجال والنساء الذين كانوا يشهدون هذا المنظر فقد وصلت بهم قوة الشعور إلى أنهم صاروا يعملون أعمال الأطفال . فكان الكثير من النساء يقبل العساكر ودموع الفرح تسيل على خدودهن ، وأغلب الرجال كانوا يرقصون ويغنون ويلقون بقبعاتهم فى الطريق .

بمثل هذه المناظر وبما يدور فيها من الأحاديث أمام الأطفال ينغرس الشعور الوطنى فى نفوسهم ويزهر ويثمر . وهكذا الحال فى تربية الفضائل الأخرى .

فانحطاط المصرى إنما هو ناشىء من حرمانه من هذه التربية الأولى ينمو الطفل بيننا كما ينمو النبات . ولايهتم أحد من أهله إلا بإعطائه التغذية والملبس . فهم يعتنون به كما يعتنى أى إنسان بحيوان يحبه . فكل بناء يقام بعد ذلك على هذا الأسس هو بناء على الرمل لايلبث أن ينهار مهدوما .

وبالجملة ، ان التربية تنقسم إلى قسمين .

تربية العقل : وهى التى توجه مدارك الإنسان إلى اكتشاف حقائق العالم .

وتربية الروح : وهى التى توجه إرادته إلى الخير وتميل بإحساسه إلى الجميل . وكلتاهما لازمتان لسعادة الإنسان .

أما التربية العقلية فمنبعها المكاتب والمدارس ، وأما التربية الروحية فلا تكتسب إلا فى العائلة ، ولا يمكن اكتسابها فى العائلة إلا إذا كانت الأم فى أول من يدبرها ولا يمكن أن تدبرها الأم إلا إذا كانت على جانب عظيم من الرقى العقلى والأدبى . لهذا قلنا : إن المصريين إذا أرادوا أن يترقوا وجب عليهم أن يعملوا لارتقاء شأن المرأة المصرية .

ومما يوجب الأسف ان المصريين لم يفهموا إلى الآن هذه الحقيقة تمام الفهم ، فى حين ان رجالا من مسلمى الهند قد صعدوا بفكرهم وتوصلوا بأبحاثهم إلى إدراك شأن المرأة فى الهيئة الاجتماعية وأحاطوا بما لوظيفتها من الأهمية ، وقد قام رجلان من أعاظمهم أحدهما الأمير على القاضى والثانى عناية حسين .

فنشر الأول مقالة جميلة موضوعها (النساء فى الإسلام) ترجمت فى مجلة (المقتطف) فى عدديها الصادرين فى شهرى يونيه ويوليه سنة ١٨٩٩ ونقتطف منها من غير ترتيب ما يأتى :

« ما من مقياس يقاس به ارتقاء الأمم مثل منزلة المرأة فيها ، فإذا أراد مسلمو الهند أن يرتقوا وجب عليهم أن يعيدوا للمرأة المنزلة الرفيعة التى كانت فيها فى صدر الإسلام » .

« وكفى من تاريخ روسيا الحديث دليلا على ارتباط تقدم الأمم المادى والمعنوى بمقام المرأة فيها ، فقد بقيت نساء الاشراف فى روسيا متحجبات إلى بداية القرن الثامن عشر ، يعشن فى بيوت ، بل

فى سجون ، لا يدخلها النور ولا الهواء ، أسدلت الاستار على كواها . وأحكمت الأقفال على أبوابها ، ووضعت مفاتيحها فى جيوب الآباء والأزواج ، وإذا أريد نقلهن من مكان إلى آخر نقلن فى محفات متحجبات متبرقعات كما تنقل النساء فى بلاد الهند ، فلما فكت قيود النساء ، وجارين الرجال فى العلم والتهذيب ، وصرن من دعائم الهيئة الاجتماعية ، صارت بلاد الروس من أعظم ممالك الأرض »

« كانت شمس المعارف فى المشرق فانتقلت إلى المغرب ، فمنه يجب ان نستمد النور وكل من يسعى فى اعلاء شأن نسائنا له عندنا شكر ، ولكن لايغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » .

« ولابد أن يسأل سائل : هل كان نساء الخلفاء وغيرهن من النساء يبرزن ملتفات بالأكفان ، كالنساء الشرقيات فى مدن الشرق الآن ؟! ويظهر لى أنهن لم يكن يلبسن غير النقاب يسترن به وجوههن كما تستر نساء الآستانة الآن باليشمك فيخفى غضون الشيخوخة ويظهر جمال الصبا ، أما البرقع الشامل للوشاح والنقاب والخمار فلم يشع إلا فى أواخر عهد السلاجقة ، وأما الاحتجاب بالبردة على ما هو شائع الآن عند مسلمى الهند وغيرها من البلدان فلم يكن معروفا فى تلك العصور ، والنساء من الطبقات العليا كن يظهرن أمام الرجال غير متبرقعات » .

« واستخدام العرب الخصيان فى عهد معاوية ، آخذين ذلك من الروم ، واقتبسوا نظام الحريم فى عهد الوليد الأموى الثانى ، وأمر المتوكل ـ نيرون العرب ـ بفصل النساء عن الرجال فى الولائم والحفلات العمومية ، ولكن بقيت النساء يختلطن بالرجال إلى أواخر المائة السادسة للهجرة وكن يقابلن الزوار وعقدن مجالس

الانس ويمضين إلى الحرب لابسات الحديد ويساعدن إخوانهن وازواجهن فى الدفاع عن القلاع والمعاقل » .

« ولما اضمحل شأن الخلفاء في أواسط المائة السابعة ومزق التتار شمل الدول العربية قام العلماء يتجادلون فى هل الأليق بالنساء أن يظهرن أيديهن أو أقدامهن ! » .

وألقى الثانى خطبة فى جمعية الآداب الإسلامية بمدراس فى الهند ترجمت فى جريدة (المؤيد) الصادرة فى ١٤ يوليو سنة ١٩٠٠ نقتطف منها ما يأتى :

« ولدينا نقطة أخرى عظيمة الأهمية لا أرى مندوحة من الكلام فيها والبحث فيما يتعلق بشأنها ، إذ لاترتقى أمة ولا تسمو مملكة إلا بواسطتها ، وهذه النقطة هى تربية البنات . إذا لم تتحققوا أيها السادة أن النساء والرجال توأمان عاملان فى الهيئة الاجتماعية ، انهم إما أن يقوموا معا وإما أن يسقطوا معا ، فلا سبيل إلى الرقى ولا وسيلة إلى التقدم والنجاح ، ولا نقدر ان نقول أن أساس امتنا موطد الدعائم ثابت البنيان . تذكروا ان الطفل هو والد الرجل ، وأنه متى كانت الامهات جاهلات لايقدرن على بث أنوار المبادىء الأدبية والتهذيبية فى نفوس أولادهن ولا يرقين عقولهن ولايقوين أبدانهن بالوسائل الصحية فإننا نبقى إلى الأبد فى آخر صف من صفوف الأمم » .

فانظر إلى ما يكتبه رجال من أهل الفقه والعلم فى الهند ، وإلى ما كتبه فقهاؤنا وكتابنا حيث قالوا : إن المرأة لاشأن لها فى ارتقاء الأمم ، وإنها لايجب أن تتعلم إلا مايلزمها من فرائض دينها للعبادة ، ولايسوغ لها ان تتعلم القراءة والكتابة ، وقاموا جميعهم ينصحون الناس بتشديد الحجاب عليها ويحذرونهم من السير فى طريق الكمال الذى أشرنا إليه بحجة أنه تقليد للغربيين فى عاداتهم ، ويوهمون أن الغربيين أنفسهم متألمون من حال نسائهم !

وقد بينا بالتفصيل الأسباب الاجتماعية التى يلزم لأجلها العناية بشأن المرأة واخراجها من الحجر الذى سقطت تحته أزمانا طويلة ، وبرهنا على أنها هى صاحبة السلطة على الأخلاق والقابضة على زمام الآداب ، وأنها هى التى تسوق الأمم فى طريق الخير والشر ، وأنها لايمكنها ان تحسن القيام بهذه الوظيفة الاجتماعية إلا إذا كانت على جانب عظيم من العقل والعلم والأدب .

نقول هذا مع اطلاعنا على ما كتب فى شأن المرأة الغربية ، ومع علمنا بما هى عليه ولا نرى ما نعا من السير فى تلك الطريق التى سبقتنا فيها الأمم الغربية ، لأننا نشاهد أن الغربيين يظهر تقدمهم فى المدنية يوما فيوما ، ونرى أن البلاد التى يتمتع فيها النساء بحريتهن وبجميع حقوقهن هى التى تسير كالدليل أمام الأخرى وتهديها فى سبيل الكمال فى المدنية ، ومن جهة أخرى نرى أن جميع الأمم التى حطت من شأن نسائها على غاية من الضعف ، وهى فى ذلك على درجة واحدة أو نسب متقاربة ، لا يظهر التفاوت بينها مع اختلاف الأقاليم وتباين الشعوب والأديان .

....

هذا هو المشاهد الواقع تحت انظارنا ، ولا يمكن لعاقل أن يجادل فيه .

أما ما زعموه من أن الأوروبيين يتألمون من حال نسائهم أو يشتكون من بعض مطالبهن فذلك موضوع آخر غير مانحن فيه ، ومسألةالنساء التى هى موضوع بحثنا فى بلادنا غير مسألتهن فى ما يكتبه بعض الكتاب الغربيين ، فإننا فى هذه البلاد نطالب بمنح المرأة حريتها الجسمية وإنالتها حقوقها الشرعية وتهذيبها وتمكينها من أداء وظائفها فى البيت ، وهذا الطلب لا ينازعنا فيه غربى مهما انحطت درجته فى العقل والإحساس .

وإنما يشكو بعض الكتاب الغربيين من سوء استعمال بعض النساء لحريتهن ، ومن طلبهن مساواة الرجال فى حقوقهم السياسية .

وحينئذ فالاستدلال بآراء هؤلاء الكتاب للرد علينا هو مغالطة او خلط بين موضوع وموضوع . إذ كل إنسان يميز بين تقرير الحق وبين استعماله .

هذه حرية الصحافة هنا وفى بعض بلاد أوروبا قد ساء استعمالها إلى حد أن صار كل انسان يتألم منها ، ولكن لم يفكر عاقل فى أن يدعى أن الواجب هو الحجر على الأفكار . لأن هذا الدواء يكون أمرّ من الداء الذى يرام معالجته .

فالأسباب التى يبنى عليها كتابنا رأيهم فى الحجر على حرية النساء هى عين الأسباب التى انتحلتها الحكومة الشرقية لحرمان أبنائها من حرية القول والكتابة والعمل ، وهى التى أغرت متأخرى المسلمين بقفل باب الاجتهاد فى التوفيق بين أحكام الدين وحاجات الأمم على اختلاف الأمصار والأعصار مع عدم الخروج عن الأصول العامة التى قررها الكتاب والسنة الصحيحة ، وهى التى زينت للآباء عندنا أن يستعملوا فى تربية أولادهم وسائل القسوة والغلظة ، وهى التى كانت تقضى على الحكام عندنا . من عهد ليس ببعيد ، بوضع تعريفة للبائعين يحددون فيها أثمان اللحم والخضار والمسلى وأغلب ما يباع ويشترى فى الأسواق .

ومنشأ ذلك كله الاهتمام بإزالة المضار التى تظهر فى بعض أحوال البشر والغفلة عن المحافظة على منافعهم ، وقد يكون من اسباب تلك الغفلة أن وجوه المنافع فى أحوال الناس ، وهى جهات حسنها ، تخفى عادة على من ينظر إليها نظرا سطحيا ، أما وجوه الضرر فتظهر عادة للعموم ، لأنها تتشكل بأشكال الجرائم والفظائع التى تنفر منها النفوس ، فأول ما تتجه إليه النفس النافرة هو أن

تمحو هذا باية طريقة ، وأقرب الطرق وأسهلها فى بادىء الأمر هو العنف والشدة .

ولكن المتأمل إذا تروى فى الأمور يجد أن لسير الإنسانية قوانين خاصة يجب مراعاة أحكامها فى نمو الحياة واستكمال قواها ، سواء فى الأفراد أو فى الاجتماع ، وأن كل مخالفة لهذه القوانين لها أثر سيىء وضرر عظيم يلحق الفرد أو الهيئة الاجتماعية .

إذا تقرر هذا فسلب المرأة حريتها هو أكبر مخالفة لقوانين نموها العقلى والأدبى . فالتعويل على حرمان المرأة من حريتها فى القاء ضرر سوء استعمال ذلك الحق ربما يفيد فى منع بعض النساء من إتيان ماينشأ عنه ذلك الضرر ، ولكن من المحقق أنه بجانب هذه الفائدة الخاصة المؤقتة يجلب ضررا عاما مستمرا وهو تعطيل النمو فى ملكات صنف النساء بتمامه .

وبالجملة . فإننا لانهاب أن نقول بوجوب منح نسائنا حقوقهن فى حرية الفكر والعمل بعد تقوية عقولهن بالتربية . حتى لو كان من المحقق أن يمررن فى جميع الأدوار التى قطعتها وتقطعها النساء الغربيات . لأننا على ثقة من أن جميع المطالب التى يطمح إليها نساء الغرب فى هذه الأيام ليست من الوسائل التى يعضل حلها ، ويدوم القلق بسببها ، بل يقضى فيها المستقبل بحكم العقل والحق .

ورب سائل يسأل : إلى متى تنتهى هذه الأدوار التى تنتقل فيها النساء ؟ فالجواب أن ذلك سر مجهول ليس فى طاقة أحد من الناس أن يعلمه ، وكما أننا نجهل ماذا يكون حال الرجل بعد مائتى سنة . كذلك لايمكننا أن نعرف ماذا يكون حال المرأة بعد مرور هذه المدة . وإنما نحن على يقين من أمر واحد وهو ان الإنسانية سائرة فى طريق الكمال ، وليس علينا بعد ذلك إلا أن نجد السير فيه ونأخذ نصيبنا منه .

● ● ●

التربيـــة والحجـــاب

لو لم يكن فى الحجاب عيب إلا انه مناف للحرية الإنسانية وانه صار بالمرأة إلى حيث يستحيل عليها أن تتمتع بالحقوق التى خولتها لها الشريعة الغراء والقوانين الوضعية ، فجعلها فى حكم القاصر ، لاتستطيع أن تباشر عملا ما بنفسها مع أن الشرع يعترف لها فى تدبير شئونها المعاشية بكفاءة مساوية لكفاءة الرجل ، وجعلها سجينة ، مع أن القانون يعتبر لها من الحرية ما يعتبره للرجل - لو لم يكن فى الحجاب إلا هذا العيب - لكفى وحده فى مقته وفى أن ينفر منه كل طبع غرز فيه الميل إلى احترام الحقوق والشعور بلذة الحرية . ولكن الضرر الأعظم للحجاب فوق جميع ماسبق هو انه يحول بين المرأة واستكمال تربيتها .

إذا تقرر أن تربية المرأة من الضرورات التى لايمكن أن يستغنى عنها ، فما هى التربية التى تناسبها ؟ هل يناسبها تربية كتربية الرجل ؟ أو تخص بتربية أخرى ؟ وهل يمكن تربيتها مع الحجاب ؟ أو لابد فيها من إبطاله ؟ وهل يعمل فيها على قواعد تأخذ من العلوم الغربية الحديثة ؟ أو يرجع فيها إلى أصول المدنية الإسلامية القديمة ؟

هذه المسائل تدخل فى باب التربية والحجاب ، وقد دار البحث والجدل فيها فى العام الماضى بين كثير من الكتاب . والآن نريد أن نبدى رأينا فيها على غاية من الوضوح .

ففى المسألة الأولى ـ لانجد من الصواب ان تنقص تربية المرأة عن تربية الرجل .

أما من جهة التربية الجسمية فلأن المرأة محتاجة إلى الصحة كالرجل ، فيجب أن تتعود على الرياضة كما تفعل النساء الغربيات اللاتى يشاركن أقاربهن الرجال فى أغلب الرياضات البدنية ويلزم أن تعتاد على ذلك من أول نشأتها وتستمر عليه من غير انقطاع وإلا ضعفت صحتها وصارت عرضة للأمراض . ذلك لأن النواميس الطبيعية تقضى بضرورة التوازن بين مايكسبه الجسم ومايفقده بحيث لو اختل هذا التوازن فسدت الصحة واختل نظامها ، والأمراض التى تصيب الإنسان بسبب إهماله استعمال قواه الجسمية ليست بأقل عددا ولا بأخف ضررا من الأمراض التى تصيب من ينفق قوته ولا يعوض بالتغذية مافقد منها ، ثم ان ما تقاسيه المرأة من الآلام والمشقات حين الولادة فى مرة واحدة ربما يزيد على ما يعانيه الرجل من المتاعب طول حياته ولايحتمله من النساء إلا القويات المزاج صحيحات الأجسام كنساء القرى المتعودات على العمل البدنى المتمتعات بالهواء النقى ، أما نساء المدن المحرومات من الحركة والتمتع بالشمس

والهواء فلا قدرة لهن على احتمال هذه المشقات ، ولذلك فإن أكثرهن يعشن عليلات بعد الولادة الأولى ، وكثيرا ما يهلكن فيها . فقد بلغ عدد من يموت منهن فى النفاس أكثر من ثلاثين فى الألف .

وكما تلزم العناية بصحة المرأة لوقايتها من الهلاك والأمراض . كذلك يلزم العناية بصحتها حرصا على صحة أولادها ووقايتهم من العلل . لأن ما يعرض على مزاج الأم وما يكون فيه من الاستعداد للمرض ينتقل بالوراثة إلى الأولاد .

وأما من جهة التربية الأدبية فلأن الطبيعة قد اختارت المرأة وندبتها إلى المحافظة على آداب النوع ، فسلمتها زمام الأخلاق وائتمنتها عليها ، فهى التى تصنع النفوس ، وهى ساذجة لاشكل لها ، فتصوغها فى أشكال الأخلاق ، وتنشر تلك الأخلاق بين أولادها فينقلونها إلى من يتصل بهم فتصبح أخلاقا للأمة بعد أن كانت أخلاقا للعائلة كما كانت أخلاقا للعائلة بعد أن كانت أخلاقا للأم . هذا يدلنا على أن المرأة الصالحة هى أنفع لنوعها من الرجل الصالح والمرأة الفاسدة هى أضر عليه من الرجل الفاسد . ولعل هذا هو السبب فى ما وقر فى نفوس الناس فى كل زمان من أن الرذيلة الواحدة إذا تدنست بها المرأة حطت من قدرها أكثر مما تحط من شأن الرجل لو تدنس بها ، وأن الفضيلة تعلى من شأن المرأة مالا تعليه من شأن الرجل .

بقى علينا الكلام على القسم الأخير من التربية ، وهو التربية العقلية ، هذه التربية هى عبارة عن تعلم العلوم

والفنون ، والغاية التى ترمى إليها هى أن يعرف الإنسان ما فى الكون من الموجودات ، وفيها نفسه ، حتى إذا عرف ذلك على حقيقته أمكنه أن يوجه أعماله إلى ما يعود عليه بالنفع ويتمتع بلذة : المعرفة ، فيعيش سعيدا .

والمرأة كالرجل على حد سواء فى الاحتياج إلى الانتفاع بالعلم والتمتع بلذته ، ولا فرق بينها وبينه فى التشوق إلى استطلاع عجائب الكون والوقوف على أسراره لتعلم مبدأها ومستقرها وغايتها .

ومهما عظم اشتغال المرأة ، متزوجة أو خالية ، ذات أولاد أم لا ، فإنها تجد من الوقت ماتثقف فيه عقلها وتهذب نفسها .

ولو خصص نساؤنا للمطالعة عشر الوقت الذى يقضينه فى اليوم فى البطالة ولغو الكلام والخصام لارتقت بفضلهن الأمة المصرية ارتقاء باهرا .

ولاتتحصل المرأة على المطلوب من هذه التربية العقلية بتعليمها القراءة والكتابة واللغات الأجنبية . بل تحتاج أيضا لتعلم أصول العلوم الطبيعية والاجتماعية والتاريخية لكى تعرف القوانين الصحيحة التى ترجع إليها حركات الكائنات وأحوال الإنسان . كما أنها تحتاج لتعلم مبادىء قانون الصحة ووظائف الأعضاء حتى يمكنها أن تقوم بتربية أولادها .

والمهم فى هذه التربية هو تشويق عقل المرأة إلى البحث عن الحقيقة وليس حشو ذهنها بالمواد حتى إذا

انتهت مدة تعليمها فى المدارس استمر شوقها إلى الحق فتتحرك دائما وتعتبر به .

وأضيف على ذلك أنه ينبغى على البنت أن تتعلم صناعة الطعام وترتيب البيت .

ولابد هنا من استلفات النظر إلى وجوب الاعتناء بتربية الذوق عند المرأة وتنمية الميل فى نفسها إلى الفنون الجميلة . وانى على يقين من أن أغلب القراء لايستحسنون أن تتعلم البنات الموسيقى والرسم ، لأن منهم من يرى أن لافائدة فى الاشتغال بهذه الفنون ، ومنهم من يعدها من الملاهى التى تنافى الحشمة والوقار ، وقد ترتب على هذا الوهم الفاسد انحطاط درجة هذه الفنون فى بلادنا إلى حد يأسف عليه كل من عرف مالها من الفائدة فى ترقية أحوال الأمم .

فن التصوير والرسم له فائدة لاتقل عن فائدة العلم ، لأن العلم يعرفنا الحقيقة ، وهذا الفن يحببها إليها ، لأنه يبديها لنا على الشكل الأكمل الذى يتخيله صاحب الفن فيبعث فينا بذلك الميل إلى الكمال والكمال شىء يدركه عقلنا ، لكنه لايقع تحت حواسنا ، فلا يمكننا أن نتصوره إلا إذا صار مجسما أمامنا فى شكل لطيف نحس به ، ومتى رأيناه فى هذا الشكل تعلقت نفسنا بمحبته ، وكلما كان صاحب الفن ماهرا فى صناعته كان صنعه أقرب للكمال وكانت النفس أكثر ميلا إليه وأشد اعجابا به وأعظم سرورا بالإحساس به .

ولفن الموسيقى مثل هذه المزايا فإنها أفصح لغة تعبر عما فى ضمائرنا ، وألذ مايرد على مسامعنا ، ومن أحسن ماوصفت به قول أفلاطون :

« إن الموسيقى تبعث الحياة فى الجماد ، ويسمو بها الفكر ، ويرتقى الخيال ، وتبث فى النفس الفرح والسرور ، وترفعها عن الدنايا ، وتميل بها إلى الجمال والكمال ، فهى من عوامل الأدب للإنسان » .

هذه هى التربية التى نود أن تكون للبنات ، وقد بيناها اجمالا ، لأن المقام لايسمح ببيانها تفصيلا . هذه هى التربية الكاملة التى تيسر للمرأة الجمع بين واجباتها المختلفة المتعددة فتعدها لأن تكون إنسانا يكسب عيشه بنفسه ، وزوجة قادرة على أن تحصل لعائلتها أسباب الراحة والهناء ، وأما صالحة لتربية أولادها .

متى انتهت تربية البنت باتخاذ مايلزم من الوسائل لتنمية قواها الجسمية وملكاتها العقلية تكون قد بلغت سن الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة من عمرها ، فما الذى ينبغى أن تكون عليه بعد ذلك ؟ وكيف تعيش ؟ أتحجب فى بيتها ، وتمنع عن مخالطة الرجال ؟ أو تطلق لها الحرية فى ذلك ؟ هذا هو موضع البحث فى المسألة الثانية والثالثة وسنتكلم عليهما معا لما بينهما من الارتباط .

رأى المنتقدون على [تحرير المرأة] أننا تطرفنا فى مسألة الحجاب ، وأننا أشرنا برفعه تقليدا للعادات الغربية .

وزعموا أن الحجاب لايوجب انحطاط المرأة ولايترتب عليه ضرر لها ولذلك ذهبوا إلى وجوب استبقائه والمحافظة عليه ، وقالوا : إن الذى حط بالمرأة عن منزلتها إنما هو عدم التربية ، فلو تربت تربية حسنة أمكنها ، وَهِيَ فى الحجاب ، أن تقوم بواجباتها أحسن قيام .

على أننا بعد أن دققنا النظر فى جميع ماقِيلِ أو كتب فى هذا الشأن لانزال على رأينا ولم يزدنا تكرار البحث فيه إلا وثوقا بصحة ماذهبنا إليه .

ولانرى سببا للخلاف بيننا وبين مناظرينا إلا الاختلاف فى فهم معنى التربية ، فهم يرون ان التربية هى التعلم ، وذلك يتم على رأيهم بمكث الصغير فى المدرسة سنين محدودة تكون نهاية عمله فيها الحصول على الشهادة الدراسية ، وأنه متى نال هذه الورقة السميكة ، التى سماها بعض ظرفاء الفرنساويين (جلد حمار) ! عد بالغا فى العلم والأدب حد النهاية . ونحن على خلاف ما رأوا نعتقد أن التربية لاتقوم بالمكث فى المدرسة والحصول على الشهادة ، وإنما كل مايستفيد الصبى من ذلك فى أيام التحصيل الأولى هو الاستعداد لتكميل عقله وخلقه .

ذلك لأن الصبى فى السنة الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة من عمره لايعرف من العلم إلا نظريات عامة ومسائل كلية يحفظها فى جمل مختصرة ، ومهما كانت هذه القضايا علمية أو أدبية فلا قيمة لها إلا بظهورها فى العمل ، وذلك يكون بالمشاهدات والتجارب التى تحدد دائرة تطبيقها

والحد الذى يفصلها عن غيرها وتبين الأحوال التى تدخل فيها أو تخرج عنها وجهات نفعها وضررها ، هذه التطبيقات هى الواسطة الوحيدة فى فهم القواعد على حقيقتها ، فإذا انعدمت لاتكون هذه القواعد إلا ألفاظا وخيالات .

لهذا لايخطر على بال رجل عاقل أن يسلم نفسه إلى طبيب يوم خروجه من المدرسة ولايختار محاميا للدفاع عنه يوم نيله للشهادة وهو لم يتمرن على العمل زمنا كافيا !

وكذلك الحال فى الآداب والأخلاق . إذ لاشى على الإنسان أسهل من أن يعلم مقدار الفائدة فى ضبط شهواته وقهره نفسه . ولكن لاشىء أصعب فى العمل من أن يأتى ذلك بالفعل . لأن قهر الإنسان لهواه وجعله تحت سلطان العقل يستدعيان قوة عظيمة فى الإرادة ، ولاتوجد هذه القوة فى الإرادة بإقامة الحوائل المادية بينه وبين النقائص ، ولا بمجرد حشو ذهنه بالقواعد الأدبية ، وإنما تتولد بالتعرض لملاقاة الحوادث والتعود على مغالبتها والتغلب عليها .

فمزاولة الأعمال ومشاهدة الحوادث واختبار الأمور ومخالطة الناس والاحتكاك بهم والتجارب ، كل هذه الأشياء هى منابع للعلم والآداب الصحيحة . بها ترتقى النفوس الكريمة حتى تبلغ أعلى الدرجات ، وأمامها تنهزم النفوس الضعيفة وتسقط إلى أسفل الدركات .

قال « سبنسر »[1] فى هذا المعنى عند كلامه على التربية العقلية :

« لافائدة من التربية التى تجعل الإنسان مستودعا لأفكار غيره ، لأن الكلمات التى توضع فى الكتب لايمكن أن تنتج معانى إلا على نسبة التجارب المكتسبة » .

وقال « أدمون ديمولان »[2] عند كلامه على التربية الأدبية ، نقلا عن تجربة صديقى أحمد فتحى باشا زغلول :

« إن ترتيب الحوادث وسير الوجود يرشدنا إلى أن الأمم التى بلغت فيها همة الإنسان منتهاها ، وهى ملجأ الحياة الأدبية الصحيحة ، حيث تثبت الأخلاق وتبقى المحامد ، وبيانه أن المؤثر الأدبى إنما يجعل المرء قادرا على قهر النفس والتغلب على هواها ، وليس من درس يتعلم فيه الرجل قهر نفسه وقيادة زمامها أشد فعلا من الحياة العملية التى يتعلم فيها أن لا اعتماد إلا على نفسه ، وليس من مرب يأخذ بمجامع القلوب أكثر من تلك الحياة ، فهى التى تقود المرء إلى الحياة الحقيقية ، وهى المدرسة الطبيعية التى تريه كيف يتحمل المتاعب والرزايا ، وهى الأسهل تناولا والأكثر شيوعا وطلابا ، تلك أشد ضرورات

(١) هربرت سبنسر (١٨٢٠ - ١٩٠٣م) الفيلسوف الانجليزى الذى لقب بفيلسوف التطور .

(٢) (١٨٥٢ - ١٩٠٧م) عالم الاجتماع الفرنسى . صاحب كتاب (سر تقدم الانجليز السكسونيين) وصاحب كتاب (التربية الحديثة)

فعلا فى النفوس من وعظ الواعظين ونصح الحكماء والمرشدين الذين يدخل كلامهم من إحدى الاذنين ويخرج من الأخرى . ذلك لأن الأعمال تدعو إلى العمل أكثر من الأقوال » .

فالتجارب هى أساس العلم والأدب الحقيقى . والحجاب مانع للمرأة من ورود هذا المنبع النفيس ، لأن المرأة التى تعيش مسجونة فى بيتها ، ولاتبصر العالم إلا من نوافذ الجدران أو من بين أستار العربة ، ولا تمشى إلا وهى كما قال الأمير على القاضى . « ملتفة بكفن » ، لا يمكن أن تكون إنسانا حيا شاعرا خبيرا بأحوال الناس . قادرا على أن يعيش بينهم .

ولايكفى لاخراج المرأة المصرية من هذه الحياة الصناعية التى يشكو الكل منها أن تمكث بضع سنين فى المدرسة ، ثم تنتقل منها إلى بيت تحتجب فيه بقية عمرها ، بل يلزم أن تستمر فى الاعتناء بجسمها وعقلها بعد المدرسة ، ونشركها فى حياتنا الطبيعية ، يلزم أن نضع يدنا فى يدها ، ونسير معها فى الأرض ، ونريها عجائب الكون ولطائف الصناعة ودقائق الفنون وآثار الزمن الغابر واختراعات الزمن الحاضر ، يلزم أن تقاسمنا أفكارنا وآمالنا وأفراحنا وآلامنا وتحضر مجالسنا ، فتستفيد مما يعرض فيها من الأخلاق والأفكار والمباحث وتفيدنا على رعاية الحشمة والتأدب فى القول .

يقول معترض : « أنا نراك تريد أن تحسن حال المرأة المصرية بحملها على تقليد المرأة الغربية ، فهلا أعرت

تمدننا القديم الذى كان من أصوله احتجاب النساء نظرة ،
وهل من نفوس كريمة يهزها ذكرى مجدها القديم فتلتفت
إلى أصوله لفتة علمية ترى أنه هو المجد الصحيح الذى
يجب أن نشد له رواحل العزائم ، والذى سيتضح للعالم
أجمع يوما ما أنه هو نفس الكمال الذى ينشده الإنسان
ويلتمسه الوجدان » ؟

هذا الاعتراض ربما يلذ للقارىء سماعه لطلاوة لفظه ،
وربما ينجذب إليه لأنه يحرك الميل الغريزى فى كل إنسان
إلى التعلق بآثار الآباء والأجداد . ولكن الأجدر بنا
ألا نجعل للفظ تأثيرا فينا إلى حد يذهلنا عن الحق ،
وعلينا أن نأخذ أهبتنا لمقاومة سلطة العادات الموروثة
إذا خشينا أن تسلبنا إرادتنا واختيارنا ، والتعلق بالتقاليد
الراسخة لايحتاج إلى التحريض والترغيب ، لأنه حالة
لازمة للنفس آخذة بزمامها ، فهى مستغرقة فيها من ذاتها ،
وإنما الذى يحتاج للتشويق والتشجيع هو التخلص من
ماض ضار واعتناق مستقبل نافع .

إذا أمكنا أن نأخذ تلك الأهبة كان من أهم ما يجب علينا
أن نلتفت إلى التمدن الإسلامى القديم ونرجع إليه . ولكن
لا لننسخ منه صورة ونحتذى مثال ما كان فيه سواء
بسواء . بل لكى نزن ذلك التمدن بميزان العقل ونتدبر فى
أسباب ارتقاء الأمة الإسلامية وأسباب انحطاطها
ونستخلص من ذلك قاعدة يمكننا أن نقيم عليها بناء

ننتفع به اليوم وفى ما يستقبل من الزمان .

ظهر الدين الإسلامى فى جزيرة العرب بين قوم كانوا يعيشون فى حال البداوة ، أى فى أدنى الحالات الاجتماعية ، فأوجد بينهم رابطة ملية ، وأخضعهم إلى رئيس واحد ، ووضع لهم شرعا نسخ ما كان عندهم من العادات المتبعة فى معاملاتهم من قديم الزمان ، ولما أمرهم بالجهاد أخذوا يحاربون الأمم الأخرى ، واستولوا عليها ، ولم يكن ذلك بامتيازهم على من جاورهم من الأمم فى العلوم والصنائع ، ولكن كان بروح الوحدة التى بعثها الإسلام فيهم . مع استعدادهم الفطرى للقتال ، فلما اختلطوا بالمصريين والشاميين والفرس والصينيين والهنود وغيرهم وجدوا عند هؤلاء الأمم كثيرا من العلوم والصنائع والفنون ، فاستفادوا منها ونقلوا معظمها إلى لسانهم . وسمحوا لأولئك المغلوبين أن يأتوا فى ترقيتها بما شاءوا ، وظهرت عند ذلك نهضة علمية ، كما هو الشأن فى الأمم عقب كل انقلاب يجرى لغاية صالحة ، استمرت مدة أربعة قرون تقريبا .

على هذين الأساسين شيدت المدنية الإسلامية :

الأساس الدينى : الذى كون من القبائل العربية أمة واحدة خاضعة لحاكم واحد ولشرع واحد .

والأساس العلمى : الذى أرتقت به عقول الأمة الإسلامية وآدابها إلى الحد الذى كان فى استطاعتها أن تصل إليه فى ذلك العهد

ولكن لما كان العلم فى تلك الأوقات فى أول نشأته ، وكانت أصوله ضروبا من الظنون لايؤيد أكثرها بشىء من التجارب . كانت قوة العلم ضعيفة بجانب قوة الدين ، فتغلب الفقهاء على رجال العلم . ووضعوهم تحت مراقبتهم . وزجوا بأنفسهم فى المسائل العلمية وانتقدوها . وحيث أنهم لم يأتوا إليها من بابها ، ولم يجهدوا أنفسهم فى فهمها أخذوا يؤولون الكتاب والأحاديث بتأويلات استنبطوا منها أدلة على فساد المذاهب العلمية وحملوا الناس على أن يسيئوا الظن بها . وما زالوا يطعنون على رجال العلم ويرمونهم بالزندقة والكفر حتى نفر الكل من دراسة العلم وهجروه ، وانتهى بهم الحال إلى الاعتقاد بأن العلوم جميعها باطلة إلا العلوم الدينية . بل غلوا فى دينهم وشطوا فى رأيهم حتى قالوا فى العلوم الدينية نفسها أنها لابد أن تقف عند حد لايجوز لأحد أن يتجاوزه ، فقرروا أن ما وضعه بعض الفقهاء هو الحق الابدى الذى لايجوز لأحد أن يخالفه ، وكأنهم رأوا من قواعد الدين أن تسد أبواب فضل الله على أهله أجمعين .

هذا النزاع الذى قام بين أهل الدين وأهل العلم ، ولا أقول بين الدين والعلم . لم يكن خاصا بالأمم الإسلامية ، بل وقع كذلك عند الأوروبية . ولكن لما كانت هذه الأمم قد ورثت علوم اليونان والرومان والعرب ، وكان وصول تلك العلوم إليها قرب تمام تكوينها ، لم تحتج أوروبا إلى زمن طويل فى اكتشاف الأصول الحقيقية لتلك

العلوم ، وقد نالت منها فى مائتى سنة مالم ينله غيرها فى آلاف السنين ، وتوالت الاكتشافات العلمية يجر بعضها بعضا ويرشد بعضها إلى بعض ، فمنها اكتشاف قوانين سير الكون ، وتحليل الضوء ، وسرعة سيره ، وكيفية تكون الأصوات وسرعتها وشكل اهتزازاتها ، وعلمت ماهية الحرارة ، وكيفية تكون الكرة الأرضية وحقيقة شكلها ، وتكون الأرض وتقادم الأعصار عليها وعلى سكانها ، وضروب التغييرات التى طرأت عليها والأدوار التى تقابلت فيها من وقت أن كانت كتلة نارية إلى أن ظهر عليها النوع الإنسانى بعد جميع الأنواع الأخرى . ثم عرفت قوانين الحياة ، ووظائف الدورة الدموية والتنفس والهضم ، وخصائص قوى الإدراك ، وكيف تتكون خلايا الجسم وكيف تعيش وكيف تفنى ، وصححت وكملت أصول الكيمياء والطبيعية .

من هذه الاكتشافات أخذ الكتاب والفلاسفة مادعت إليه الحاجة ليعلموا الإنسان من أين أتى وإلى أين يذهب وما هو مستقبله ، ووضعوا أساس العلوم الأدبية والاجتماعية والسياسية .

بكشف هذه الحقائق شيد العلم بناء متينا لايمكن لعاقل أن يفكر فى أن يهدمه ، ولهذا تغلب رجال العلم على رجال الدين فى أوروبا بعد النزاع والجهاد ، وانتهى الحال بأن صار للعلم سلطة يعترف له بها الناس كافة .

فإذا كان التمدن الإسلامى بدأ وانتهى قبل أن يكشف الغطاء عن أصول العلوم ، كما بيناه ، فكيف يمكن أن

نعتقد أن هذا التمدن كان (نموذج الكمال البشرى) ؟ يهمنا أن لانبخس أسلافنا حقهم ولا ننقص من شأنهم ، ولكن يهمنا مع ذلك ألا نغش أنفسنا بأن نتخيل أنهم وصلوا من التمدن إلى غاية من الكمال ليس وراءها غاية . نحن طلاب حقيقة إذا عثرنا عليها جاهرنا بها مهما تألم القراء من سماعها ، لذلك نرى من الواجب علينا أن نقول :

إنه يجب على كل مسلم أن يدرس التمدن الإسلامي ويقف على ظواهره وخفاياه ، لأنه يحتوى على كثير من أصول حالتنا الحاضرة ، ويجب عليه أن يعجب به لأنه عمل انتفعت به الإنسانية وكملت به ما كان ناقصا منها فى بعض أدوارها ، ولكن كثيرا من ظواهر هذا التمدن لايمكن أن يدخل فى نظام معيشتنا الاجتماعية الحالية .

أما من جهة العلوم فالأمر ظاهر ، لما سبق بيانه .

وأما من جهة النظامات السياسية فلأننا مهما دققنا البحث فى التاريخ لانجد عند أهل تلك العصور ما يستحق أن يسمى نظاما ، فإن شكل حكومتهم كان عبارة عن خليفة أو سلطان غير مقيد ، يحكم بواسطة موظفين غير مقيدين ، فكان الحاكم وعماله يجرون فى إدارتهم على حسب إرادتهم ، فإن كانوا صالحين رجعوا إلى أصول العدالة بقدر الامكان ، وإن كانوا غير ذلك خرجوا من حدود العدالة وعاملوا الناس بالعنف ، ولم يكن فى النظام ما يردهم إلى أصول الشريعة .

ربما يقال : إن هذا الخليفة كان يولى بعد أن يبايعه أفراد الأمة ، وأن هذا يدل على أن سلطة الخليفة مستمدة من الشعب الذى هو صاحب الأمر . ونحن لاننكر هذا ، ولكن هذه السلطة التى لايتمتع بها الشعب إلا بعض دقائق هى سلطة لفظية ، أما فى الحقيقة فالخليفة هو وحده صاحب الأمر ، فهو الذى يعلن الحرب ويعقد الصلح ويقرر الضرائب ويضع الأحكام ويدير مصالح الأمة مستبدا برأيه ولايرى من الواجب عليه أن يشرك احدا فى أمره .

ومن الغريب أن المسلمين فى جميع أزمان تمدنهم لم يبلغوا مبلغ الأمة اليونانية ، ولم يتوصلوا إلى ما وصلت إليه الأمة اليونانية من جهة وضع النظامات اللازمة لحفظ مصالح الأمة وحريتها . فقد كان لتلك الأمم جمعيات نيابية ومجالس سياسية بها مع الحكام فى إدارة شئونها .

وأغرب من هذا أن أمراء المسلمين وفقهاءهم لم يفكروا فى وضع قانون يبين الأعمال التى وجدوا أنها تستحق العقاب ويحددوا العقوبات عليها ، بل تركوا حق التعزير إلى الحاكم يتصرف فيه كيف يشاء ، مع أن بيان الجرائم وعقابها هما من أوليات أصول العدالة .

ولست محتاجا أن أقول إنهم ما كانوا يعرفون شيئا من العلوم السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، فإن هذه العلوم حديثة العهد ، وإذا أراد مكابر أن يتحقق من ذلك فما عليه إلا أن يتصفح مقدمة ابن خلدون . وهو الكتاب الفرد الذى وضع فى الأصول الاجتماعية عند المسلمين

يرى أن الأصول التى اعتمد عليها لايخلو معظمها من الخطأ ، ويندهش على الخصوص عندما يرى أن هذا الكتاب الذى وضع للبحث فى المسائل الاجتماعية لم تذكر فيه كلمة واحدة فى العائلة التى هى أساس كل هيئة اجتماعية ، فإذا كانت حالتهم السياسية هى كما ترى فما الذى يطلب منا أن نستعيره منها ؟

كذلك إذا نظرنا إلى حالتهم العائلية نجد أنها مجردة عن كل نظام حيث كان الرجل يكتفى فى عقد زواجه بأن يكون أمام شاهدين ، ويطلق زوجته بلا سبب أو بأوهى الأسباب ويتزوج عدة نساء بدون مراعاة حدود الكتاب . كل ذلك كان واستمر إلى الآن على ما هو مشهور ، ولم يفكر أحد من الحكام أو الفقهاء فى وضع نظام يمنع انحلال روابط العائلة ، وأقل ما كان يلزمهم لرفع ذلك الخلل أن يقروا مثلا أن إيقاع الطلاق وعقود الزواج والرجعة لابد أن تكون أمام مأمور شرعى حتى لاتبقى هذه الشئون موضعا للريب ومحلا للشبهة ومثارا للنزاع والشقاق .

أين هذه الفوضى من النظامات والقوانين التى وضعها الأوروبيون لتأكيد روابط الزوجية وعلاقات الأهلية ؟ بل أين هى من القوانين اليونانية والرومانية التى لم تغفل فى جميع أدوارها عن أهمية العائلة وشأنها فى الهيئة الاجتماعية ؟ فأى شىء من هذا يمكن أن يكون صالحا لتحسين حالنا اليوم ؟

بقى علينا ان نلتفت إلى التمدن الإسلامى من جهة الآداب . يعتقد أهل عصرنا أن المسلمين السابقين كانوا

حائزين لجميع أنواع الكمالات الأخلاقية الصحيحة ، وهو اعتقاد غير صحيح أو على الأقل مبالغ فيه .

أما من جهة أصول الأدب ، فالمعلوم أن المسلمين لم يأتوا للعالم بأصول جديدة ، فقد سبق المسلمين أمم كاليهود والنصارى والبوذيين والصينيين والمصريين وغيرهم ، وقد كانت تلك الأمم تعرف تلك الأصول ، وضمنتها كتبها ، ونزلت على بعضها في وحي سماوى ،

وأما من جهة عمل المسلمين على مقتضى تلك الأصول الأدبية ، فالتاريخ يشهد على أن كل عصر لايخلو من الطيب والردىء والحسن والقبيح . وقد وصلت إلينا أخبار العرب مدونة فى الكتب التاريخية والأدبية فكشفت لنا الغطاء عن اخلاقهم ومعاملاتهم ، وأطلعنا على شعرهم وأمثالهم وأغانيهم فما وجدنا زمنا من الأزمان خاليا من الآداب الفاسدة والأخلاق الرذيلة والطبائع الدنيئة . رأينا الدولة العربية من بعد وفاة النبى - صلى الله عليه وسلم - إلى آخر أيامها ممزقة بالمنازعات الداخلية الناشئة على التباغض والحقد وحب الذات ، حتى فى الأوقات التى كانت فيها الدولة مشتغلة بأهم الحروب مع الأمم الأخرى رأينا أحد أولاد على رضى الله عنه تزوج بأكثر من مائة امرأة حتى التجأ والده أن ينصح الناس بألا يزوجوه بناتهم ؟

ورأينا من الرجال من كان يعترض النساء فى الطريق ويختلس النظر إليهن من خروق الحائط ! رأينا من أمرائهم

وأعاظمهم من كان يشرب الخمر حتى لايعى مايقول فى مجالس تحضرها الجوارى وتطرب الحاضرين بنغمات الموسيقى !. رأينا من شعرائهم من يستجدى العطايا ويمد يده ملتمسا رزقه من فضلات الأمراء والأغنياء ، ومنهم من يمدح نفسه ويثنى عليها ويذهب فى ذلك إلى حد ليس بعده إلا الجنون ، أو يتغزل فى ولد ، أو يهجو خصمه بعبارات الفحش وألفاظ الوقاحة التى يستحى من تصورها فضلا عن التفوه بها ! . رأينا من مؤرخيهم من يزور فى التاريخ ومن فقائهم من يخترع الأحاديث ويضعها لغايته الذاتية !

فأى زمن من الأزمان السابقة كان منزها عن العيوب حتى يصح أن يقال أنه (نموذج الكمال البشرى) ؟ الكمال البشرى لا يجب أن نبحث عنه فى الماضى ، بل إن أراد الله أن يمن على عباده فلا يكون إلا فى المستقبل البعيد جدا .

من أغرب ما اعتاد عليه العقل الإنسانى أن يظن أن العصر الذى هو فيه أحط منزلة فى الكمال من العصر الذى سبقه . ومنشأ ذلك أن الأبناء ينشأون على احترام آبائهم وتعظيم كل ما يصدر عنهم ، فالكمال عندهم ما وجدوا عليه أباءهم ، ويزيد ذلك تقريرا فى نفوسهم أن الآباء يستهجنون دائما ما صار إليه أبناؤهم مما لم يكن معهودا لهم ، لا يستطيعون أن يغيروا أنفسهم ، فيكون وهم الأبناء وغرور الآباء كل منهما عونا للآخر على استقباح الحاضر وعبادة الماضى .

ولو صح ما يزعمون لكان أكمل إنسان هو أول من وجد من نوعه ، ولاستمر النقض عصرا بعد عصرا إلى هذا اليوم ، ولكانت نهاية الإنسان أن يصير حيوانا أعجم ، مع أنه من الثابت أن عصورا مضت على النوع الإنسانى وهو فى أدنى مراتب الإنسانية ، ثم ارتقى بالتدريج إلى أن وصل إلى هذه الدرجة العليا التى يحق له أن يفتخر بها .

متى تقرر أن المدنية الإسلامية القديمة هى غير ماهو راسخ فى مخيلة الكتاب الذين وصفوها بما يحبون أن تكون عليه ، لا بما كانت فى الحقيقة عليه ، وثبت أنها كانت ناقصة من وجوه كثيرة ، فسيان عندنا بعد ذلك أن احتجاب المرأة كان من أصولها أو لم يكن ، وسواء صح أن النساء فى أزمان خلافة بغداد أو الأندلس كن يحضرن مجالس الرجال أو لم يصح ، فقد صح أن الحجاب هو عادة لايليق استعمالها فى عصرنا .

ونحن لا نستغرب أن المدنية الإسلامية أخطأت فى فهم طبيعة المرأة وتقدير شأنها ، فليس خطؤها فى ذلك أكبر من خطئها فى كثير من الأمور الأخرى .

وغنى عن البيان أننا عند كلامنا على المدنية الإسلامية لم نقصد الحكم عليها من جهة الدين ، بل من جهة العلوم والفنون والصنايع والآداب والعادات ، التى يكون مجموعها الحالة الاجتماعية التى اختصت بها ، ذلك لأن عامل الدين لم يكن وحده المؤثر فى وجود تلك الحالة الاجتماعية فهو على ما به من قوة السلطان على الأخلاق

لم ينتج إلا أثرا مناسبا لدرجة عقول وآداب الأمم التى سبقت .

والذى أراه أن تمسكنا بالماضى إلى هذا الحد هو من الأهواء التى يجب أن ننهض جميعا لمحاربتها ، لأنه ميل يجرنا إلى التدنى والتقهقر ، ولا يوجد سبب فى بقاء هذا الميل فى نفوسنا إلا شعورنا بأننا ضعاف عاجزون عن إنشاء حال خاصة بنا تليق بزماننا ويمكن أن تستقيم بها مصالحنا ، فهو صورة من صور الاتكال على الغير ، كأن كلا منا يناجى نفسه قائلا لها : أتركى الفكر والعمل والعناء واسترخى فليس فى الإمكان أن نأتى بأبدع مما كان ! .

هذا هو الداء الذى يلزم أن نبادر إلى علاجه ، وليس من دواء إلا أننا نربى أولادنا على أن يعرفوا شئون المدنية الغربية ويقفوا على أصولها وفروعها وآثارها .

إذا أتى هذا الحين ـ ونرجو ألا يكون بعيدا ـ انجلت الحقيقة أمام أعيننا ساطعة سطوع الشمس ، وعرفنا قيمة التمدن الغربى ، وتيقنا أنه من المستحيل أن يتم إصلاح مافى أحوالنا إذا لم يكن مؤسسا على العلوم العصرية الحديثة ، وأن أحوال الإنسان مهما اختلفت وسواء كانت مادية أو أدبية خاضعة لسلطة العلم .

لهذا نرى أن الأمم المتمدنة على اختلافها فى الجنس واللغة والوطن والدين متشابهة تشابها عظيما فى شكل حكومتها وإدارتها ومحاكمها ونظام عائلتها وطرق تربيتها

ولغاتها وكتابتها مبانيها وطرقها ، بل فى كثير من العادات البسيطة كالملبس والتحية والأكل ، أما من جهة العلوم والصنايع فلا يوجد اختلاف إلا من حيث كونها تزيد أو تنقص فى أمة عن أمة أخرى .

من هذا يتبين أن نتيجة التمدن هى سوق الإنسانية فى طريق واحدة . وان التباين الذى يشاهد بين الأمم المتوحشة أو التى لم تصل إلى درجة معلومة من التمدن منشؤه أن أولئك الأمم لم تهتد إلى وضع حالتها الاجتماعية على أصول علمية .

هذا هو الذى جعلنا (نضرب الأمثال بالأوروبيين) ونشيد بتقليدهم ، وحملنا على أن (نستلفت الأنظار إلى المرأة الأوروبية) .

هذه مسألة تحديد حقوق المرأة وتربيتها قد اجتهدت كثيرا فى أن أقف على رأى علماء المسلمين فيها . من المتقدمين أو المتأخرين ، فما وجدت شيئا ، وقد نبهنى أحد أصحابى إلى كتاب ألفه فى هذا الموضوع حضرة الشيخ حمزة فتح الله[1] المفتش بنظارة المعارف ، وقد قرأته من أوله إلى آخره فوجدته يحتوى على كل شىء ولكنه لم يشتمل على شىء مما وضع الكتاب لأجله ! .

ومن الغريب أن الذين لم يرق فى نظرهم إعجابنا

(١) حمزة فتح الله (١٢٦٦ - ١٣٣٦ هـ - ١٨٤٩ - ١٩١٨ م) أديب وعالم وصحفى مصرى ، له أبحاث لغوية ، وشارك فى مؤتمر المستشرقين بفينا واستوكهلم وترك عددا من الرسائل والمصنفات .

بالأوروبيين اضطروا جميعهم بمن فيهم الشيخ الأزهرى . أن يستشهدوا فى الرد علينا بآراء بعض العلماء والكتاب الأوروبيين ، نساء ورجالا ! .

فإن كان منهم من يقول : إنى قليل الاطلاع على ما كتبه المسلمون ، قصير الباع فى علومهم ، فأنا لا أجادله فى هذا ، وإنما يسرنى ويملأ قلبى بهجة أن أرى كتابا إسلاميا ، قديما أو جديدا ، يحتوى على حقوق المرأة وما يجب عليها من حيث هى امرأة وزوجة وأم وفرد من أمة ، فإن جاءنى من يزعم قلة اطلاعى وقصر باعى بكتاب مثل هذا أثقلته حمدا وشكرا .

وسيقول أرباب الأفكار عندنا : إنا نسلم بأن المدنية الأوروبية صحيحة حسنة نافعة بالنسبة للعلوم التى توصلت إلى جمعها وإنمائها واستخدامها ، ولكنها فاسدة رديئة ضارة بالنسبة للأخلاق والآداب التى تلازمها فى كل مكان وصلت إليه .

فهم يعترفون للغربيين بأنهم أرقى منا فى العلوم والفنون والصنايع ، ويعترفون بأن معارفهم أوصلتهم إلى توجيه أعمالهم فى طريق تحصيل منافعهم بأحسن الوسائل الموصلة إلى السعادة فى هذه الدنيا ، ولكنهم متى رأوا طرق معاملاتهم بعضهم مع بعض ، وخصوصا كيفية معاملة رجالهم لنسائهم ، أو سمعوا بها ، تغير حكمهم عليهم تغيرا كليا ، وأعرضوا عن فهم ما هم فيه وصرحوا بأنهم أحط منا فى الآداب . هذا الاعتقاد يشبه أن يكون عاما فينا كما يلاحظ من يقرأ الجرائد ومن يلتفت إلى

الأحاديث التى تدور بين الناس ، وهو اعتقاد لا يصعب علينا بيان سببه .

ذلك أننا نذعن بتقدم الغربيين علينا فى العلوم والصنايع لأننا نرى آثارها محيطة بنا من جميع أطرافنا ، فكلما التفتنا إلى جهة من جهاتنا وجدنا أثرا منها مشهودا ، نراها فى البيت : فى مأكلنا ومشربنا وملبسنا وجميع أدوات المنزل وأثاثه . نراها فى المدرسة مدة التعليم ، ثم من النظامات التى تدور عليها جميع أصول وفروع إدارتنا وحكومتنا . نراها فى الطرق على شكل عمارات فاخرة وجوانب كبيرة وبساتين منتظمة وشوارع نظيفة تسير فيها العربات والآلات البخارية والكهربية ، وبالجملة نرى فى كل آن وفى كل مكان برهانا ماديا لا يمكن معه إلا التسليم بأننا متأخرون عن الغربيين كثيرا فى المعارف العلمية والصناعية .

وكأنما نريد أن نمحو العار الذى يلحقنا من هذا الاعتراف ، ونأخذ بثأرنا ، فلا نجد وسيلة لذلك إلا أن ندعى أننا أرقى منهم فى الآداب ، وأنهم ان سبقونا فى الماديات ومظاهرها فقد سبقناهم فى الروحانيات وسرائرها .

وإنما سهل علينا التمسك بهذه الدعوى لأن التقدم فى الماديات مما يقع تحت الحس ، فلا يمكن إنكاره ، أما التقدم فى الأمور المعنوية فهو مما لا يدرك إلا بالعقل ، فلا يقف عليه كل إنسان ويجد المكابر فى غيبته عن

الحس مجالا للإنكار ، وقد يساعد المكابر فى مكابرته ما يراه أو يسمع به فى البلاد الغربية من كثرة الملاهى ومسارح الشهوات وغير ذلك من سيىء العادات التى يتجرّ منها الغربيون أنفسهم ويتألمون لانتشارها والعقلاء منهم يسعون فى محوها أو تقليلها ولكنهم يأسفون على أن مساعيهم تعجز عن الوصول إلي ما يتمنون ، فاغتنمنا فرصة وجود هذه العيوب وأقمنا منها حجة لتأييد دعوانا .

ومما أخذناه على الغربيين فى آدابهم تكشف نسائهم واختلاطهن بالرجال وتمتعهن بالحرية التامة واحترام الرجال لهن ، وكثير منا يعد هذه العادات أسبابا لفشو الفساد فيهم ، ويعتقدون أن جميع نسائهم لا يعرفن العفة ، وكل الرجال مجردون عن الغيرة .

ولما كانت غاية التمدن هى تهذيب النفس وتطهيرها عن الرذائل والابتعاد بها عن المنكرات والخبائث ونشر الفضيلة بين الناس ، كان لنا الحق فى احتقار المدنية الأوروبية ، ان صح ما اعتقدناه فيها .

ولكن هل هذا الاعتقاد صحيح ؟ .

أما كون الآداب فى الغرب أحط منها فى الشرق فهى مسألة لا يسمح لنا موضوعنا باستيفاء البحث فيها ، ويمكننا أن نجمل الكلام عليها فى قليل من العبارات :

إن العداوة القديمة التى استمرت أجيالا بين أهل الشرق والغرب ، بسبب اختلاف الدين ، كانت ولا تزال إلى الآن سببا فى جهل بعضهم أحوال بعض ، وأساء كل منهم الظن بالآخر ، وأثرت فى عقولهم حتى جعلتها تتصور الأشياء على غير حقيقتها ، إذ لاشىء يبعد الإنسان عن الحقيقة أكثر من أن يكون عند النظر إليها تحت سلطان شهوة من الشهوات لأنه إن كان مخلصا في بحثه محبا للوقوف على الحقيقة ، وهو ما يندر وجوده ، فلابد أن شهوته تشوش عليه فى حكمه ، وأدنى آثارها أن تزين له ما يوافقها وتستميله إليه ، وان كان من الذين لا منزلة للحق من نفوسهم - وهم السواد الأعظم - ضربوا دون الحق أستارا من الأكاذيب والأوهام والأضاليل مما تسوله لهم شهوتهم حتى لا يبقى لشعاع من أشعة الحق منفذ إلى القلوب .

وزد على ذلك أن التربية العلمية لم توجد فى العالم الغربى إلا من زمن قريب ، وهى لا تزال إلى الآن مفقودة فى الشرق ، والمحروم من هذه التربية لا يسهل عليه أن يبنى أحكامه على مقدمات صحيحة ، لأن الجاهل يستمد حكمه من إحساسه لا من عقله ، فهو لا يستحسن الشىء لأنه مطابق للحق ، وإنما يعتقد الشىء مطابقا للحق لأنه يستحسنه بخلاف المتعود على الأبحاث العلمية ، فإن عقله ينخدع بإحساسه ، فكلما أراد أن يشتغل بمسألة طبيعية أو تاريخية مثلا جمع الحوادث التى تتعلق بها ورتب الوقائع واستنبط منها القاعدة التى يحكم بصحتها

بناء على ما حصل من المقدمات ، غير صادر فى ذلك إلا عن حب الحقيقة ، فإذا عرض له أن يشتغل بالنظر فى حال جاره أو عدوه استعمل الطريقة التى ألفها وسلم بما تؤدى إليه من النتائج وخضع لها ولو كانت مخالفة لما يهواه .

ولقد وصل الغربيون إلى درجة رفيعة من التربية ، واشتغل كثير ممن كملت فيهم تلك التربية بالبحث عن أحوال الشرقيين والمسلمين ، وكتبوا فى عاداتهم ولغتهم وآثارهم ودينهم وألفوا فيها كتبا نفيسة أو دعوها آراءهم ونتائج بحثهم . وامتدحوا ما رأوه مستحقا للمدح وقدحوا فى ما رأوه محلا للقدح ، غير ناظرين فى ذلك إلا إلى تقرير الحق وإعلان الحقيقة صادفوا الصواب أم أخطأوه .

أما عندنا فلم تبلغ التربية من الناس هذا المبلغ ، ولهذا كان حكم كتابنا فى هذه الأشياء فى قياد الشهوات وتحت سلطة الإحساس والإلف والعادة ، ومن وجد لشعاع الحق لمعانا فى بصيرته وجد من خوف اللائمة عقيدة فى لسانه تمنعه من إظهاره ، أو حمله الرياء على إطالة القول فى تأييد مالا يعتقده ، فإذا وجد بينهم مخلص فى القصد طالب للحق وجهر به كان نصيبه أن يتهم بالتجرد عن الوطنية وبالعداوة للدين والملة - وأشدهم اقتصادا فى ذمه يرميه بالبطش والخفة توهما منه أن الاعتراف بفضل الأجنبى مما يزيد طمع الأجانب فينا وأن إظهار عيوبنا مما يوقع اليأس فى قلوبنا .

ولا عذر لهم فى حكمهم هذا إلا أنهم قد جروا فيه على

سنتهم فى سائر أحكامهم ، وإلا فهم مخطئون ، لأن السبب فى طمع الأجانب فينا ليس هو اعترافنا بانحطاطنا ، وإنما هو نفس ذلك الانحطاط الذى عرفه الأجانب منا قبل أن نحس به من أنفسنا ، فهم قد اكتشفوا ما كانت عليه بلادنا من منذ خمسة آلاف سنة ، ووقفوا على أخلاق المصريين وتفصيل أحوالهم فى معيشتهم أيام الفراعنة ، وجمعوا من حقائق ذلك الوقت شيئا كثيرا لم يصل إلينا إلا منهم ، وقليل منا من يعرفه ! فلا عجب أن يكونوا أسبق منا إلى معرفة حالتنا الحاضرة . نقصها وكمالها .

ثم لا خوف أن يلحقنا اليأس عند شعورنا بانحطاطنا ، لأن اليأس إنما يكون عند استحالة الخلاص من التهلكة ، وليس لهذه الاستحالة محل بالنسبة إلينا ، خصوصا أن الأمم لا تقف فى حياتها عند حد ، بل هى موضوع للتقلبات والتغيرات ، وتتوارد عليها أحوال القوة والضعف والشدة والرخاء ، فلا تدوم على حال ، وإذا عرضت عليها الشدة يوما لا تلبث أن تخرج منها بجهدها واجتهادها ، وبديهى أن التوجه إلى الإصلاح والكمال لا يكون إلا بعد الشعور بالنقص . فما لم تستشعر الأمة بتأخرها عن الأمم الأخرى وتقصيرها عن الوصول إلى ما وصل إليه من غايات الكمال لا تنبعث إلى التقدم ولا تتحرك لإدراك غاية من هذه الغايات ولذلك كان تنبيه الأمة إلى نقصها وإشعارها بحقيقة منزلتها من بقية الأمم أول فرض يجب القيام به ، كما أن شعور الأمة بهذا النقص يعد أول خطوة فى سبيل ترقيتها .

لهذا لا نتردد فى أن نصرح بأن القول بأننا أرقى من الغربيين فى الآداب هو من قبيل ما تنشده الأمهات من النغائم لتنويم الأطفال ! .

وغاية مافى الأمر أن تقدم الأوروبيين علينا من هذه الجهة لا يقام الدليل عليه بآثار مادية . كتقدمهم فى العلوم والصنائع . وإنما يعرفه من خالطهم واختبرهم فى ظاهر شئونهم وباطنها حتى وقف على منزلتهم من الخصائص الأدبية .

ينقسم الأوروبيون ، كما تنقسم سائر الأمم ، إلى ثلاث طبقات : عليا ، ووسطى ودنيا . فأما الطبقة الدنيا فأكبر حظها من التربية معرفة القراءة والكتابة وقليل من مبادىء العلوم ، وهم فى أخلاقهم الشخصية أشد فسادا من عامتنا فى أخلاقها .

وأما الطبقة العليا فتصيب حظا عظيما من التربية العقلية ، ولكن يغلب عليها ما يغرى به الغنى والبطالة ، وتستولى عليها الشهوات ، فهم يتفننون فى اللذائذ تفنن أهل الجد فى الاختراعات والصنائع .

وسبب ذلك أن التمدن الذى يعيشون فيه قد يسهل لهم إرضاء شهواتهم ، ويجدون من الوسائل لذلك مالا يوجد عندنا ، فأبدعوا فى اختراع طرق التلذذ وأعطوها الأشكال التى تجذب النفوس إليها ، فالكهرباء مثلا التى تضىء المدن وتنقل الأخبار وينتفع منها الزراع والتجار والصانع والمسافر والمريض تقوم لأرباب الخلاعة بخدمات من الوجه الذى يناسبهم وكذلك ترى لهم جرائد وكتبا وميادين

تمثيل تختص بهم ، كما أن لهم الجنان الناضرة والقصور الشاهقة .

هذا الفساد مما تتحمله المدنية الغربية وتصير عليه لأنها لا تستطيع محوه ، فإن هذه المدنية مؤسسة على الحرية الشخصية . فهي مضطرة لأن تقبل ما يتبع هذه الحرية من الضرر ، لأنها تعلم ان منافعها أكثر من مضارها .

فوجود الفساد فى الغرب إنما هو لاحق طبيعى من لواحق الحرية الشخصية ونتيجة من نتائجها فى الطور الأدبى الحالى الذى توجد فيه تلك البلاد الآن .

ولا يشك أحد فى أنه مع مرور الزمن وانتشار المعارف وتحسين طرق التربية فى طبقات الأمة ، عاليها ودانيها ، تتهذب النفوس شيئا فشيئا ، وتقرب من الكمال الذى هو ضالتها .

غير أنه لا يفوت القارىء ان هذا الفساد الذى ذكرناه فى الأمم الغربية لم يضعف فيهم الفضائل الاجتماعية التى هى الركن الأقوى لبناء الأمم ، وما يتبع تلك الفضائل من بذل الأنفس والأموال فى سبيل تعزيز الوطن أو الدفاع عنه ، فأدنى رجل فى الغرب كأعلى رجل فيه إذا دعا داع إلى هجوم أو قيام لدفاع أو إلى عمل نافع يترك جميع لذائذه وينساها وينهض لإجابة الداعى ويخاطر بنفسه ويبذل ماله إلى أن يتم للأمة ما تريد ، فأين حال هاتين الطبقتين من هذه الفضائل الجليلة فى الأمم الغربية من حالة الأمة الشرقية ؟ .

وأما الطبقة الوسطى فلا ريب أنها أرقى من التى تقابلها عندنا ، نحن فى الحقيقة لا نعرف من أحوال الغربيين إلا بعض ماظهر منها ، والكثير منا لا تزيد معرفته على ما عرف منها فى الشوارع والقهاوى وما قرأه فى بعض القصص والحكايات ، وليس من الحق ولا من العدل أن نظن هذه الظواهر هى صورة تامة لحقيقة منزلتهم من الأدب .

من أراد أن يكون حكمه فيهم صحيحا فعليه أن يلم بجميع مظاهر حياة تلك الأمم ويقف على جميع الإحساسات والعواطف التى تحرك نفوسهم ، وهذا أمر يحتاج لمعرفة تامة بلغتهم وتاريخهم وعاداتهم وأخلاقهم ، فإذا تمت للباحث هذه الشروط أمكنه أن يعرف لم يهب رجل ألمانى حياته ويترك زوجته وأولاده مساعدة لأمة البوير ؟ .

ولماذا يحتقر عالم من العلماء طيب العيش ولذائذ الحياة ويرجح الاشتغال بحل مسألة أو كشف غامضة أو فهم علة ؟ وكيف أن سياسيا واسع الثروة عالى المقام يفنى زمنه فى تدبير الوسائل لإعلاء شأن أمته ، وربما حرم نفسه راحة النوم فى ذلك السبيل ؟ . وما هو المحرك للسائح الذى يقضى الشهور والسنين بعيدا عن أهله وبلده لكشف منابع النيل مثلا ؟ . وما هو الإحساس الذى يرضى القسيس بالمعيشة بين المتوحشين مع ما يتكبده من أنواع العذاب وما يحيط به من الأخطار ؟ . وما هذا

الوجدان الذى يسوق الغنى إلى أن يبذل الآفا من الجنيهات لجمعية من الجمعيات الخيرية أو لعمل يعود نفعه على أمته أو على الإنسانية ؟ .

إذا علم السر فى هذه الصفات ومصادر هذه الأعمال الجليلة ، ثم علم ما بين أعضاء العائلات من الوفاق والائتلاف والمحبة . ونظر إلى مافى معاملاتهم من الصدق فى القول والغيرة على الحق ونمو إحساس الشرف والميل إلى مساعدة الضعيف والفقير والرأفة بالحيوان فلا شك أنه ينتهى من هذا العلم إلى نتيجة صحيحة وهى أن هؤلاء القوم على جانب عظيم من الأدب والفضيلة . لأن هذه الأعمال والأحوال تدل على ضعف سلطان حب النفس . كما تدل على نمو الإحساس بحاجة كل من أفراد الأمة إلى الآخر . والترقى الأدبى إنما هو التضامن بعينه .

وليس هذا بغريب . فإن التقدم فى العلوم يؤدى إلى التقدم فى الآداب والأخلاق . لاريب أن الارتقاء العقلى يصحبه الارتقاء الأدبى دائما . فإن العلم هو المادة التى يتغذى منها الأدب ، لا أقول انه لا يوجد الأدب إلا حيث يوجد العلم ، وإنما أقول : ان ادب الجاهل لا يمكن أن يكون ثابتا فى نفسه مثل ثبات الأدب فى نفس العالم . العلم يخاطب العقل والحقائق العلمية لا تطلب أن يسلم بها من غير مناقشة ، بل تحتاج إلى بحث وتعب وشغل والاعتياد على الاشتغال بالعلم يكسب الاعتياد على ضبط النفس ، الذى هو أهم أركان الأدب ، فإذا هم شخص

أشربت نفسه العلم أن يعمل أمرا مخالفا للآداب نزع منه نازع إلى النظر فى ذلك الأمر و آثاره ومزاياه ومضاره . ثم رجع إلى نفسه ليعلم هل هو يصح لها أو لا يصح ويندر حينئذ أن يقدم عليه أما الجاهل فإن كان فاضلا لم تكن الفضيلة فيه إلا عادة مجردة . وهو مستعد للاذعان إلى ما يتأثر به . حسنا او قبيحا . ومائل إلى قبول ما يرى أغلب الناس عليه بدون بحث . فإذا انقطعت العادة مرة . وذاق لذة الرذيلة . انفلت قياد نفسه من يده . واستحال عليه أن يرجع إلى ما كان عليه من قبل

رأينا أن العلم يقوى حكم العقل ويهذب النفس . وأضيف على ذلك أنه يعظم الإحساس الدينى . وليس فى ذكر هذه العبارة خروج عن الموضوع . لأن الدين والأدب يرجعان فى الحقيقة إلى شىء واحد

وأجمل ماقيل فى هذا المعنى ما أتى به الفيلسوف « سبنسر » فى كتابه الذى كتبه فى التربية اقتطف منه هنا بعض ما يليق بالمقام . قال :

« ليس العلم منافيا للإحساس الدينى . كما يزعم كثير من الناس ، بل ترك العلم هو المنافى للدين . ولنضرب لذلك مثلا فنفرض أن عالما من كبار المؤلفين يصنف الكتب ويقرر الحقائق والناس يثنون عليه ويطلقون ألسنتهم بمدحه ، ولكنهم مع ذلك لم يروا من كتبه إلا غلفها . ولم يقرأوا شيئا منها ، ولم يجهدوا أنفسهم يوما فى فهم

ما احتوت عليه ، فماذا تكون قيمة هذا المدح فى نظرنا ؟ وما الذى نعتقده فى صدق هؤلاء المادحين ، ان جاز لنا أن نقيس عظائم الأشياء بصغارها ؟ نقول : ان الناس يعاملون الكون وخالقه بهذه المعاملة ! . وأدهى ما يأتون من تلك المعاملة أنهم لا يكتفون بأن يعيشوا ويموتوا وهم لا يعرفون حقيقة من حقائق تلك الأشياء التى ينادون بأنها من أبدع البدائع وأغرب الغرائب ، بل ينحون باللائمة على من يشتغل بفهم حقائقها والوقوف على ما أودع فيها من الأسرار ، ولو فقهوا لعلموا أن إهمال العلم هو المضعف للإحساس الدينى ، بل الماحق له . أما خدمة العلم فهى عبادة يؤديها القلب . لأن خدمة العلم هى اعتراف ضمنى بأن للمخلوقات قيمة عالية ، وأن الذى أوجدها له شأن أعلى ومقام أسمى . خدمة العلم هى احترام للكون وصانعه يؤديه طالب العلم ، لا بمجرد الفم واللسان ولكن ببذل وقته وفكره وعمله » .

نستنتج مما سبق أن تقدم الغربيين فى العلوم ساعد كل المساعدة على ترقيتهم فى الآداب وأن تأخر المعارف عندنا كان سببا فى انحطاط آدابنا .

وهذه حوادث عائلاتنا وما يجرى فيها بين الأب وابنه والأخ وأخيه والزوج وزوجته مما لا يحتاج بيانه إلى تفصيل . وهذه حوادث القرى وما يشاهد فيها من الحسد والتباغض والخيانة والمنازعات والجرائم والبهيمية التى يحار العقل فيها ، وهذه حوادث الوطن وما يرى فى روابط أهله من الانحلال وتفرقهم فى الرأى فى أحقر الشئون

وحرصهم على المال الا ينفقوه فى سبيل أى منفعة من المنافع العامة وضنهم بشىء من أوقاتهم للفكر فى أى مصلحة من مصالح بلادهم ، كل هذا برهان على انحطاط أخلاقنا ، وما يكون عندنا من محاسن الأخلاق ، كالكرم المعهود فى كثير من بلاد الأرياف ، يرجع فى الحقيقة إلى عيب من العيوب كالتنافس فى حب الشهرة ولهذا ترى الكثير من أعيان البلاد المشهورين بإكرام الضيف والمبالغة فى الاحتفال به يسيرون فى سائر شئونهم على خلاف مقتضى الكرم . فيظلمون الفقير ويطمعون فى أموال الضعفاء من أقاربهم ، وخصوصا النساء منهم ، ويضيقون على عائلتهم فى المعيشة ، ويأتون من ذلك ما تأباه النفس الكريمة .

وحال الأمة التركية لا يختلف فى ذلك عن حالنا . نعم ، فى بعض بلاد الريف هناك رقى فى الآداب والأخلاق وامتياز لها على الأخلاق والآداب المصرية . ولكن لا سبب لذلك إلا أن التركى يعيش فى قريته بغاية السذاجة ، وعلى ضرب من سعة العيش ، فلا يجد ما يحمله على ارتكاب ما يخالف الآداب الحسنة ، وهو بعيد عن كثير من الرذائل ، لأنه يجهلها ولا يتصور وجودها . فإذا فارق قريته وسكن مدينة من المدن رأيته لا يجاريه أحد فى مسابقة أهلها إلى مراتع اللذات ومسارح الشهوات ، وفاق أمثاله فى جميع العيوب الأخرى ! .

وبالجملة . نقول : إن التمدن الأوروبى ليس

خيرا محضا ، فإن الخير المحض ليس موجودا فى عالمنا هذا . لأنه عالم النقص . وإنما هو الخير الذى أمكن للإنسان أن يصل إليه الآن . فقد أتم به شيئا مما كان ينقصه ، وارتقى به درجة من الكمال

ومهما كانت هذه النتيجة صغيرة . فى جانب ما ينتظر للنفس الإنسانية من الكمال . فإنه ينبغى لنا أن نقنع بها . وعلى المستقبل أن يصل بأهله إلى ماهو أعلى منها .

ومن الخطأ ما يتوهمه الكثير منا أن الترقى يحصل فى بعض شئون الأمة . ولا يؤثر فى سائرها . والصواب أن الترقى لا يكون ترقيا صحيحا إلا إذا وجد منه روح تظهر فى جميع شئون الأمة . جزئياتها وكلياتها ، حتى إذا شاء باحث أن يحلل جملته وجدها مركبة من جزئيات من الترقى تظهر فى المسكن والمطعم والملبس والمبانى والطرق والجمعيات والأفراح والمآتم وأساليب التعليم والتربية والتياترات والملاهى . كما تظهر فى الصنائع والتجارة والزراعة والعلوم والفنون ، وعلى الجملة يجد أثرا للترقى فى جميع مظاهر حياتها العقلية والأدبية

ذلك لأن الحالة العقلية والحالة الأدبية متلازمتان تلازما تاما . بل هما فى الحقيقة حالة واحدة ، وإنما وضع لهما اسمان بحسب اختلاف الجهة التى ينظر منها إليها . فإن كل معلوم يرد على العقل يفيده معرفة جيدة ، ثم هو بهذه الإفادة نفسها يدخل فى نظام سلوكنا . ولو كان العلم قاصرا على المعرفة فقط وليس له أثر فى العمل لفقد معظم أهميته ان لم نقل كلها

وأما اختلاف عادات الغربيين عن عاداتنا ، وخروج نسائهم مكشوفات الوجوه واجتماعهن مع الرجال ، وتمتعهن بالحرية ، واحترام الرجال لهن ، فليس مما يدل على انحطاط الآداب عندهم .

نعم ، يعد الكثير منا هذه العادات عيوبا ، ولكن إذا سئلت : لماذا يعامل الغربيون نساءهم على هذه الطريقة ؟ .

لماذا يحترم الرجل منهم امرأته ويجلسها عن يمينه ويحب أن تكون نبيهة متعلمة ؟ .

لماذا يسمح لها أن تخرج متى شاءت وتسافر وتخالط الرجال والنساء ؟ .

لماذا كل هذه الحرية وكل هذا الاحترام ؟ .

فجواب الواحد منا لا يكون إلا أن هذه هى عادتهم السيئة ولكن هذا الجواب لا يفيد شيئا . لأنه يستدعى سؤالا اخر ، وهو : لماذا كانت هذه العادة ؟

وهنا يتيسر له الجواب .

لو كان موضوع بحثنا عادة من عادات أمة متوحشة لسهل علينا أن نقول : إن هذه العادة طرأت عليها بحكم الحوادث . وتلك الأمة تعمل تحت سلطانها بدون أن تفكر فيها ، وهى تجهل أصلها وارتباطها بأحوالها كما تجهل الأثر الذى ينشأ عنها فى شئونها .

ولكن مما لا يسلمه العقل أن أهل أوروبا وأمريكا يسيرون على هذه العادة من غير شعور منهم بأسبابها

وسائجها ، ويصعب على العقل أن يظن أن علماءهم الذين يجهدون أنفسهم كل يوم فى اكتشاف أسرار الطبيعة ، وأن هؤلاء الذين بحثوا عن الميكروبات ووجدوها وبينوا أنواعها ووصفوها بأدق أوصافها وربوها واستولدوها ، غفلوا عن هذه العادة وأهملوها .

والحقيقة أنهم درسوها درسا تاما ، كغيرها من المسائل الأخرى ، وقارنوا بينها وبين عادتنا الشرقية ، ولا أعلم أن واحدا منهم قام ينادى قومه يوما ويحثهم على تغييرها . بل الكل متفقون على أن حجاب النساء هو سبب انحطاط الشرق . وأن عدم الحجاب هو السر فى تقدم الغرب . وإنما الخلاف يوجد بينهم فى تحديد حقوق المرأة السياسية كما بيناه .

هذا الإجماع أمر جدير بأن يستوقف نظرنا . وجد بين الغربيين رجال يرون أن الملكية الخاصة هى سرقة ، وأن الأموال يجب أن تكون ملكا شائعا بين جميع أفراد الأمة . وظهر فيهم من يقول بإلغاء نظام الزواج حتى تكون العلاقات بين الرجل والمرأة حرة لا تخضع لنظام ، ولا يحددها قانون . وخرج منهم طائفة تنادى بهدم كل نظام وشرع . ولا تعترف لحكومة مهما كان شكلها بحق الوجود . ومع ذلك لم يخطر على بال واحد منهم أن يطلب حجاب النساء . بل نرى الأمر بالعكس ، فإن المتطرفين من أرباب المذاهب يطلبون التوسع فى حرية المرأة والزيادة فى حقوقها إلى أن تصير مساوية للرجل ، فهم على شططهم متفقون فى ذلك مع أرباب المشارب المعتدلة .

فما هو سر هذا الاتفاق وما سببه ؟

لأن الأروبيين لا يحبون التغيير فى عادتهم ؟ كلا . فإن التغيير عندهم هو قانون تقدمهم ، ومن ألقى نظرة عامة فى تاريخهم من قرن واحد يجد أنهم غيروا كل شىء عندهم ، غيروا حكومتهم ولغتهم وعلومهم وفنونهم وقوانينهم وملابسهم وعاداتهم ، وأن كل ما وصلت إليه هذه الأمور معرض الآن لانتقاد الباحثين منهم ومهدد بالتغيير والتبديل من وقت إلى آخر .

كذلك لا يصح أن يكون من أسباب هذا الاتفاق ما يقال من أن الأوروبيين لا يقدرون شرف النفس حق قدره ولا يغارون على نسائهم . هذا القول الذى سمعته من كثير من الناس لا يمكن أن يصدر إلا من قليل الخبرة ، ناقص المعرفة ، لم يقف على شىء من أحوال سكان تلك البلاد ، فهو لا يدرى منها أكثر مما يدريه من أحوالنا سائح غربى يدور فى « الأزبكية » وما جاورها ، ويكتب من عوائدنا ما يراه من الطائفين حول تلك الأماكن المشهورة . إذن فما هو السبب ؟ .

السبب هو أن مسألة حقوق المرأة وحريتها ليست فى الحقيقة مجرد عادة ، نرى الغربى يرفع قبعته إذا أراد التحية ، والشرقى يحرك يده ويضعها على رأسه ، فهذه عادة من العادات يمكن أن يكون لها ارتباط بتاريخ الشرق والغرب ، ولكن أهميتها لا تتعدى الموضوع الصغير الذى وضعت لأجله ، ولا يمكن أن يترتب عليها نتيجة فى

الحياة الشخصية أو العامة ، أما كون المرأة تتعلم أو لا تتعلم ، وتعيش مسجونة فى البيت أو متمتعة بحريتها ، وتخالط الرجال أو لا تخالطهم ، وما هى حقوقها فى الزواج والطلاق ، وماذا يكون شأنها فى العائلة وفى الأمة فهذه أولا مسألة اجتماعية ، فهى بذلك مسألة علمية ، ولا غرابة بعد ذلك فى حصول الاتفاق فيها .

لهذا يلزمنا بدل أن نهزأ بالغربيين ونحكم عليهم بمقتضى قاعدة تخيلناها ، وهى انهم ضلوا عن الحق فى ما يختص بشأن النساء عندهم ، يلزمنا بدل ذلك أن نقف على أفكارهم فى هذه المسألة ، ونبحث فى آرائهم وفى أسباب النهضة العظيمة التى قام بها الرجال والنساء فى هذا القرن ، وندرس جميع نتائجها الحالية ، وبعد ذلك يمكن أن نكون لأنفسنا رأيا صحيحا مؤسسا على النظريات العقلية الصحيحة ومؤيدا بالتجارب والوقائع .

● ● ●

خاتمة

« حالة الأفكار الآن في مصر بالنسبة للنساء »

ابتدأ المصريون فى هذه السنين الأخيرة يشعرون بسوء حالتهم الاجتماعية ، وبدت عليهم علامات التألم منها ، وأحسوا بضرورة العمل على تحسينها وصلت إليهم أخبار الغربيين واختلطوا وعاشروا الكثير منهم ، وعرفوا مبلغ تقدمهم ، رأوا أنهم متمتعون بطيب العيش واتساع السلطة ونفوذ الكلمة وغير ذلك من المزايا التى وجدوا أنفسهم محرومين منها ، والتى لاقيمة للحياة بدونها ، انبعث فيهم الشوق إلى مجاراتهم والرغبة فى الحصول على تلك النعم . وقام بيننا المرشدون وتزاحموا على بث الأفكار التى اعتقدوا أنها تهدى الأمة إلى طريق النجاح ، هذا يدعو إلى العمل والنشاط ، وذاك إلى ائتلاف القلوب والاتحاد ونبذ أسباب الشقاق ، وآخر إلى حب الوطن والتفانى فى خدمته ، وغيره إلى التمسك بأحكام الدين . وهلم جرا .

ولكن فات هؤلاء المرشدين أمر واحد ، وهو أن هذه الكلمات وماشاكلها لايمكن أن يكون لها فى حياة الأمة أثر يذكر إذا وصلت إلى النساء وأدركت معانيها وتعلقت نفوسهن بحبها وتوجهت ميولهن إليها ، حتى يمكنهن بعد ذلك أن يضعن أولادهن بأحسن الصور التى تمثل كمال الإنسان فى أذهانهن .

ذلك لأن كل حال اجتماعية لايمكن تغييرها إلا إذا وجهت التربية نحو التغيير المطلوب . ولأنه لايكفى فى

الإصلاح ، مهما كان موضوعه ، مجرد الحاجة إليه ، ولا أمر تصدره الحكومة بحمل الناس عليه ، ولا خطبة تلقى على مسامعهم لترغيبهم فيه ، ولا كتب تؤلف فى بيان منافعه ولا مقالات تنشر لشرح مزاياه . فإن هذه الأمور كلها لا أثر لها إلا فى ارشاد الأمة وتنبيهها إلى سوء حالها ، ولكنها ليست من الوسائل التى تغير الأمم وتحولها من حال إلى حال . لأن كل تغيير فى الأمم إنما يكون نتيجة لمجموع فضائل وصفات وأخلاق وعادات لاتتولد فى النفوس ولا تتمكن منها إلا بالتربية ، أى بواسطة المرأة .

فإذا أراد المصريون أن يصلحوا أحوالهم فعليهم أن يبتدئوا فى الإصلاح من أوله ، يجب عليهم أن يعتقدوا بأن لا رجاء فى أن يكونوا أمة حية ذات شأن بين الأمم الراقية ومقام فى عالم التمدن الإنسانى قبل أن تكون بيوتهم وعائلتهم وسطا صالحا لإعداد رجال متصفين بتلك الصفات التى يتوقف عليها النجاح . ولا رجاء فى أن البيوت والعائلات تصير ذلك الوسط الصالح إلا إذا تربت النساء وشاركن الرجال فى أفكارهم وآمالهم وآلامهم ان لم يشاركنهم فى جميع أعمالهم .

هذه الحقيقة مع بساطتها وبداهتها قد اعتبرها الناس ، يوم جاهرنا بها فى العام الماضى[1] . ضربا من الهذيان ، وحكم الفقهاء بأنها خرق فى الإسلام ، وعدها الكثير من

(١) اى عند صدور كتاب (تحرير المراة)

متخرجى المدارس مبالغة فى تقليد الغربيين . بل انتهى بعضهم إلى القول بأنها جناية على الوطن والدين . وأوهموا فيما كتبوا أن تحرير المرأة الشرقية أمنية من أمانى الأمم المسيحية تريد بها هدم الدين الإسلامى . ومن يعضدها من المسلمين فليس منهم . إلى غير ذلك من الأوهام التى يصغى إليها البسطاء ويتلذذ باعتقادها الجهلاء لعدم إدراكهم منافعهم الحقيقة .

ونحن لانريد أن نرد عليهم إلا بكلمة واحدة وهى : أن الأوروبيين إذا كانوا يقصدون الإضرار بنا فما عليهم إلا أن يتركونا لأنفسنا ، فإنهم لايجدون وسيلة أوفى بغرضهم فينا من حالتنا الحاضرة !

هذا هو الحق الذى لاريب فيه ، ومهما اجتهد قوم فى اخفائه وغفل آخرون عنه فلابد أن ينجلى للكل . عاجلا أو آجلا ، شأن الحقيقة فى جميع الأزمان .

وكل ناظر فى أحوال هيئتنا الاجتماعية الحاضرة يجد فيها مايدل على أن النساء عندنا قطعن دور الاستعباد ، ولم يبق بينهن وبين الحرية إلا حجاب رقيق ، إذ يرى :

أولا : شعورا جديدا عند المصريين بالحاجة إلى تربية بناتهم بعد أن كانوا لايعلمونهن شيئا .

....

ثانيا : تخفيف الحجاب وذهابه شيئا فشيئا إلى التلاشى .

ثالثا : تأفف الشبان من التزوج على الطريقة الحالية ، وتمنيهم تغييرها بما يمكنهم من معرفة المخطوبة .

....

رابعا : اهتمام الحكومة وبعض أبناء البلاد ، وفى مقدمتهم صاحب الفضيلة الشيخ محمد عبده مفتى الديار المصرية بإصلاح المحاكم الشرعية . وكل من اطلع على التقرير الجليل الذى وضعه فضيلته بشأن تلك المحاكم يجد أمورا كثيرة تأتى بإصلاح كبير فى العائلات المصرية ، وأخص بالذكر منها ما أتى به عند الكلام على تعدد الزوجات حيث قال :

« هذا وانى أرفع صوتى بالشكوى من كثرة ما يجمع الفقراء من الزوجات فى عصمة واحدة ، فإن الكثير منهم عنده أربع من الزوجات أو ثلاث أو إثنتان وهو لا يستطيع الانفاق عليهن ، ولا يزال معهن فى نزاع على النفقات وسائر حقوق الزوجية ، ثم انه لا يطلقهن ولا واحدة منهن ، ولا يزال الفساد يتغلغل فيهن وفى أولادهن ، ولا يمكن له ولا لهن أن يقيموا حدود الله ، وضرر ذلك بالدين

والأمة غير خاف على أحد[1] .

وقد حدث فى هذا العام أن كثيرا من النساء اللواتى حكم على أزواجهن بالأشغال الشاقة مؤبدا أو بالسجن المؤبد أو بالحبس مدة طويلة تشكون إلى نظارة الحقانية من حالتهن التعيسة ، حيث لا سبيل لهن من الانفصال من أزواجهن ، ولا يوجد لهن عائل يقوم بنفقاتهن ومعاش أولادهن ، فاضطرت نظارة الحقانية إلى استفتاء حضرة مفتى الديار المصرية عن الوجوه الشرعية التى يمكن اتخاذها لإزالة أسباب الشكوى ، فبحث حضرته فى هذه المسألة وفى مسائل أخرى تشابهها ، واستنتج من فقه المالكية إحدى عشرة مادة ، وقدمها إلى نظارة الحقانية وإليك بيانها ننشرها إفادة للقراء[2]

المـادة الأولى :

إذا امتنع الزوج عن الانفاق على زوجته فإن كان له مال ظاهر نفذ الحكم عليه بالنفقة فى ماله ، فإن لم يكن له مال ظاهر وأصر على عدم الإنفاق طلق عليه القاضى فى الحال ،

---

(١) انظر تقرير اصلاح المحاكم للإمام محمد عبده فى الجزء الثانى من أعماله الكاملة التى حققناها . ص .٢١ وما بعدها . طبعة بيروت سنة ١٩٧٢ . المؤسسة العربية للدراسات والنشر .

(٢) انظر النص الكامل لهذه الفتوى فى الجزء السادس من الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده . التى حققناها . ص ٣٧٩ طبعة بيروت سنة ١٩٧٤ م

وان ادعى العجز فإن لم يثبته طلق عليه حالا ، وان أثبت الإعسار أمهله مدة لاتزيد على شهر فإن لم ينفق طلق عليه بعد ذلك .

المـادة الثانية :

إن كان الزوج مريضا أو مسجونا وامتنع عن الانفاق على زوجته أمهله القاضى مدة يرجى فيها الشفاء أو الخلاص من السجن . فإن طالت مدة المرض أو السجن بحيث يخشى الضرر أو الفتنة طلق عليه القاضى .

المـادة الثالثة :

إذا كان الزوج غائبا غيبة قريبة ولم يترك نفقة لزوجته ضرب القاضى له أجلا ، فإن لم يرسل ماتنفق منه زوجته على نفسها أو لم يحضر للانفاق عليها طلق عليه القاضى بعدمضى الأجل ، فإن كان بعيد الغيبة أو كان مجهول المحل وثبت أنه لامال له تنفق منه الزوجة طلق عليه القاضى .

المـادة الرابعة :

إذا كان للزوج الغائب مال أو دين فى ذمة أو وديعة فى يد آخر كان للزوجة حق طلب فرض النفقة من ذلك المال أو الدين . ولها ان تقيم البينة على من ينكر الدين أو الوديعة .

ويقضى بطلبها بلا كفيل . وذلك بعد أن تحلف أنها مستحقة للنفقة على الغائب وأنه لم يترك لها مالا ولم يقم عنه وكيلا فى الانفاق عليها .

المادة الخامسة :

تطليق القاضى لعدم الانفاق يقع رجعيا ، وللزوج أن يراجع زوجته إذا أثبت يساره واستعد للانفاق فى أثناء العدة ، فإن لم يثبت يساره أو لم يستعد للانفاق لم تصح الرجعة .

المادة السادسة :

من فقد فى بلاد المسلمين وانقطع خبره عن زوجته كان لها أن ترفع الأمر إلى نظارة الحقانية . مع بيان الجهة التى تعرف أو تظن أنه سار إليها أو يمكن أن يوجد فيها ، وعلى ناظر الحقانية عند ذلك أن يبحث عنه فى مظنات وجوده بطرق النشر للحكام ورجال البوليس ، وبعد العجز عن خبره يضرب لها أجل أربع سنين ، فإذا انتهت تعتد الزوجة عدة وفاة أربعة أشهر وعشرا بدون حاجة إلى قضاء ويحل لها بعد ذلك أن تتزوج بغيره .

المـادة السابعة :

إذا جاء المفقود أو تبين أنه حى . وكان ذلك قبل تمتع الزوج الثانى بها غير عالم بحياته ، كانت الزوجة للمفقود ولو بعد العقد مطلقا أو بعد التمتع فى حال ما لو كان الزوج الثانى عالما بحياة المفقود فإن ظهر أن المفقود مات فى العدة أو بعدها قبل العقد على الزوج الثانى أو بعده ورثته مالم يكن تمتع بها الثانى غير عالم بحياة الأول . فإن مات بعد تمتعه وهو عالم بحياة الزوج الأول لم ترث .

....

المـادة الثامنة :

من فقد فى معترك بين المسلمين بعضهم مع بعض ، وثبت أنه حضر القتال ، جاز لزوجته أن ترفع الأمر إلى ناظر الحقانية . وبعد البحث عنه وعدم العثور عليه تعتد الزوجة . ولها أن تتزوج بعد العدة . ويورث ماله بمجرد العجز عن خبره ، فإن لم يثبت إلا أنه سار مع الجيش فقط كان حكمه مافى المادتين السابقتين .

....

المـادة التاسعة :

لزوجة المفقود فى حرب بين المسلمين وغيرهم أن ترفع الأمر إلى ناظر الحقانية ، وبعد البحث عنه يضرب لها أجل سنة فإذا انقضت اعتدّت وحل لها الزواج بعد العدة . ويورث ماله بعد انقضاء السنة .

وكل ضرب الآجال لاعتداد زوجة المفقود إذا كان فى ماله ما تنفق منه الزوجة أو لم تخش على نفسها الفتنة وإلا رفعت الأمر إلى القاضى ليطلق عنيه متى ثبت له صحة دعواها .

....

المـادة العاشرة :

إذا اشتد النزاع بين الزوجين ، ولم يمكن انقطاعه بينهما بطريقة من الطرق المنصوص عليها فى كتاب الله تعالى ، رفع الأمر إلى قاضى المركز . وعليه عند ذلك أن يعين حكمين عدلين أحدهما من أقارب الزوج والثانى من أقارب الزوجة . والأفضل أن يكونا جارين ، فإن تعذر العدول من الأقارب فإنه يعينهما من الأجانب . وأن يبعث بهما إلى الزوجين ، فإن أصلحاهما فبها وإلا حكما بالطلاق ورفعا الأمر إليه . وعليه أن يقضى

بما حكما به ، ويقع التطليق فى هذه الحالة طلقة واحدة بائنة ، ولا يجوز للحكمين الزيادة عليهما .

....

المـادة الإحدى عشرة :

للزوجة أن تطلب من القاضى التطليق على الزوج إذا كان يصلها منه ضرر ، والضرر هو مالا يجوز شرعا ، كالهجر بغير سبب شرعى . والضرب والسب بدون سبب شرعى ، وعلى الزوجة أن تثبت كل ذلك بالطرق الشرعية .

وقد وافق على هذا المشروع حضرة شيخ الجامع الأزهر ـ حيث أرسل إلى حضرة المفتى الجواب الآتى :

« حضرة الأستاذ صاحب الفضيلة مفتى الديار المصرية أيده الله » .

باطلاعنا على خطاب فضيلتكم المؤرخ ٤ الجـارى نمـرة ١٩ وعلى المشـروع المرفق به المشتمل على إحدى عشرة مادة مستخلصة من مذهب الإمام مالك رضى الله عنه ، المطلوب إبداء رأينا فيه . قد رأينا ما رأيتموه ، ووقعنا عليه بالموافقة . وشكرنا همتكم العلية على اعتناء فضيلتكم بهذا

الخطب الجليل . وطيه المشروع المذكور ياأفندم .

الفقير سليم البشرى ، المالكى
خادم العلم والفقراء بالأزهر
٦ربيع آخر سنة ١٣١٨[1]

....

هاتان المسألتان مسألة تعدد الزوجات . ومسألة تخويل المرأة حق الطلاق . هما من أهم المسائل التى استلفتنا إليها الأنظار فى كتاب [تحرير المرأة] ويسرنا أن عالما عظيما وفقيها حكيما مثل حضرة الأستاذ الشيخ محمد عبده رأى أنهما جديرتان بهمته . فأيد بصوته المسموع ما اقترحناه فيهما .

جميع هذه العلامات وغيرها مما يلاحظ فى البيوت كل يوم تنبئنا بأن حالة المرأة المصرية آخذه فى التحسن والترقى .

غير أن هذه الحركة لم تصدر عن نظر وروية . بل حدثت فينا بالتأثر عن مخالطة الغربيين وبمقتضى حكم الناموس المعروف عند علماء التاريخ الطبيعى القاضى بأن كل حيوان يتطبع بطبيعة الوسط الذى يعيش فيه . والدليل على أن لا دخل لإرادتنا فى هذه الحركة أننا عندما قلنا بوجوب المحافظة عليها وإعدادها حتى نبلغ منها

---

(١) الموافقة لسنة ١٩٠٠ م .

الغاية لاقينا معارضة شديدة حتى ممن ظهرت مبادىء هذا التحول فى نفوسهم وبدت بوادره فى بيوتهم .

ولا عجب فى ذلك . فإن شأننا أن نتبع أهواءنا فى جميع أعمالنا .

....

وقد أطلنا الوقت الذى يجب فيه أن نعرف ماذا نريد ؟

إن كان مقصدنا من الحياة أن يعيش كل منا بضع سنين يقضيها فى أى حال كانت واستوى لدينا العز والذل . والغنى والفقر . والحرية والرق . والعلم والجهل . والفضيلة والرذيلة . فأرى أن ما منح إلى الآن للمرأة المصرية من الحرية والتربية لا داعى له . ولا أجد مانعا من أن يتمتع الرجل بعدة نساء . ويتزوج كل يوم امرأة ثم يطلقها فى اليوم التالى ويسجن زوجاته وبناته واخواته وأمه وجدته إذا شاء ! .

يوجد فى أفريقيا وأسيا أمم عديدة تعيش النساء فيها مدفونات فى البيوت بحيث لا يرين إنسانا ولا يراهن أحد . ويوجد بين هذه الأمم من وصلت عندها حياة المرأة من الحقارة إلى حد أنه متى توفى زوجها وجب عليها أن تعدم نفسها لكيلا تتمتع بالحياة بعده ! فما علينا إلا أن نوجه أنظارنا إلى هؤلاء الأمم ونسألهم عن سر تقدم نسائهم فى الجهل والاحتجاب . لعلنا نجد عندهم ما يقوى

حجتنا فى تشديد الحجاب والحجر على المرأة !

....

أما إذا كان المقصد هو ما نقرؤه ونسمعه كل يوم من أن المصريين يريدون أن يكونوا أمة حية راقية متمدنة فلنا أن نقول لهم :

توجد وسيلة تخرجكم من الحالة السيئة التى تشتكون منها ، وتصعد بكم إلى أعلى مراتب المدن . كما تشتهون وفوق ما تشتهون ، ألا وهى تحرير نسائكم من قيود الجهل والحجاب . هذه الوسيلة نحن لم نبتكرها . وليس لنا فضل فى اختراعها . فقد استعملتها أمم من قبلنا وجربتها وانتفعت منها . انظروا إلى الأمم الغربية تجدوا بين نسائها اختلافات عظيمة . تجدوا أن تربية المرأة الأمريكية وأخلاقها وعاداتها وآدابها غير تربية وأخلاق وآداب المرأة الفرنساوية . وأن هذه تختلف من كل هذه الوجوه عن المرأة الروسية . وأن المرأة الطليانية لا تشبه فى شىء من ذلك المرأة السويدية ولا الألمانية . ولكن هؤلاء النساء على اختلاف الأقليم والجنس واللغة والدين بينهن اتحدن واجتمعن فى أمر واحد وهو أنهن يملكن حريتهن ويتمتعن باستقلالهن .

....

هذه الحرية هى التى أخرجت المرأة الغربية من انحطاطها القديم . فكما أضيف عليها التعليم وجهت إرادتها إلى أن تشترك مع الرجال فى تقدم الجمعية التى تنسب إليها ، وتم هذا الاشتراك بإتيانها أعمالا مفيدة تختلف بلا ريب عن أعمال الرجال ، ولكن لاتنقص عنها فى الأهمية فالتاجر الذى يقضى نهاره فى حانوت لبيع بضاعته . والكاتب الذى يمضى بضع ساعات في ديوان من دواوين الحكومة يشتغل فيها بتحرير إفادة إلى مصلحة أخرى . والمهندس الذى يبنى قنطرة لتسهيل المواصلات بين البلاد . والطبيب الذى يقطع عضوا ليحيى باقى أعضاء الجسم ، والقاضى الذى يفصل فى المنازعات التى تقوم بين الناس ، جميع هؤلاء وغيرهم لايوجد منهم واحد يحق له ان يدعى أن عمله يفيد الهيئة الإجتماعية أكثر من عمل امرأة تهدى إلى الجمعية رجلا وتربيه على أن يكون نافعا لنفسه ولأهله ولأمته .

نحن لانقول لكم كما يقول غيرنا : أتحدوا وكونوا عون بعضكم لبعض . أو طهروا أنفسكم من العيوب التى تعهدونها فى أخلاقكم . أو اخدموا أهلكم ووطنكم ، أو ما يماثل ذلك من الكلام الذى يذهب فى الهواء .

....

نحن نعلم أن تغيير النفوس لاتنفع فيه نصيحة مرشد ولا أمر سلطان ولا سحر ساحر ولا كرامة ولى . وإنما يتم . كما ذكرنا ، بإعداد نفوس الناشئين إلى الحال المطلوب أحداثها .

ذلك هو السير الطبيعى البعيد الأمد المحفوف بمصاعب . ولكن أسهل المصاعب هى التى تنتهى بالفوز والنجاح .

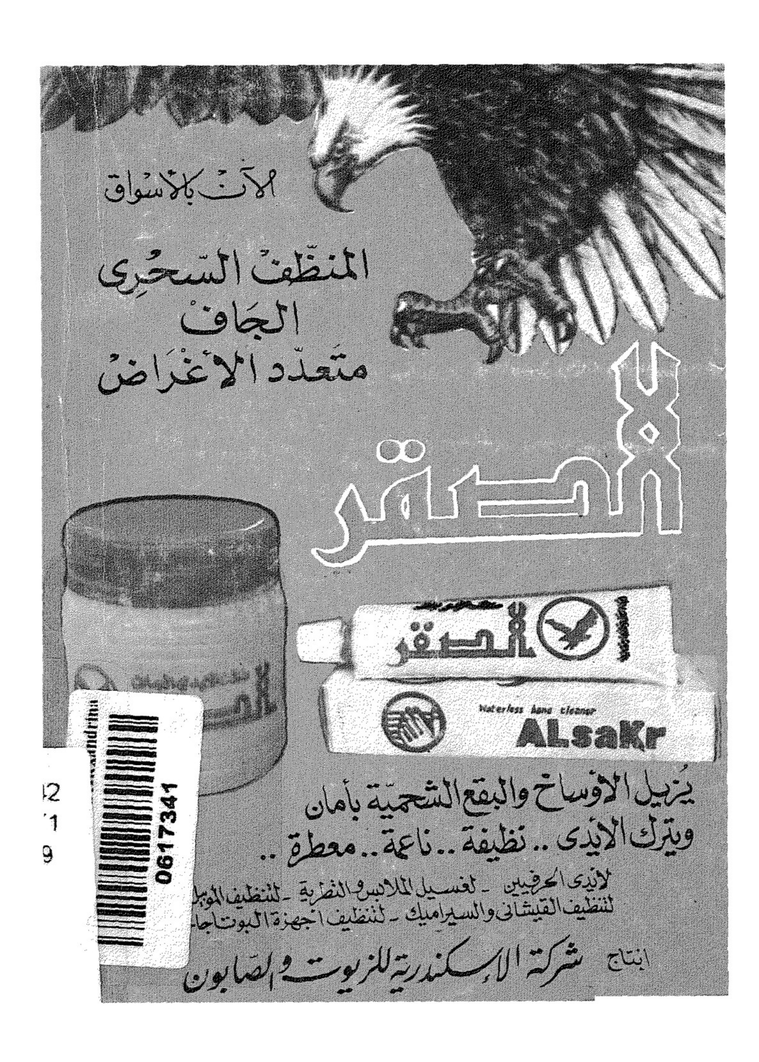
وأقرب الطرق هى التى توصل إلى المقصد .



[انتهى الكتاب والحمد الله]

رقم الإيداع بدار الكتب ٨٥٢٦ / ١٩٨٩

الترقيم الدولى × - ٣٣٩ - ١٢٤ - ٩٧٧ ISBN


الآن بالأسواق
المنظّف السّحرى
الجَاف
متعدّد الأغراض
الصقر
Waterless hand cleaner
ALsaKr
يُزيل الأوساخ والبقع الشحميّة بأمان
ويترك الأيدى .. نظيفة .. ناعمة .. معطرة ..
لأيدى الحرفيين - لغسيل الملابس والنظارية - لتنظيف المو
لتنظيف القيشانى والسيراميك - لتنظيف أجهزة البوتاجا
إنتاج شركة الإسكندرية للزيوت والصابون